رشيد بوجدرة

ليليات امرأة آرق

الاخضوع

رواية

ENAL
المؤسسة الوطنية للكتاب

رقم النشر 85 / 2034
المؤسسة الوطنية للكتاب ©
الجزائر 1985

رشيد بوجدرة

ليليات امرأة آرق

الاضرع

رواية

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

كتب أخرى للمؤلف

من اجل اغلاق نوافذ النوم (شعر 1965)

الانكار (رواية 1969)

الــرعن (رواية 1972)

يوميات فلسطينية (مذكرات 1972)

الاراثة (رواية 1975)

الحلزون العنيد (رواية 1977)

الف وعام من الحنين (رواية 1979)

ضربة جزاء (رواية 1981)

التفكــك (رواية 1982)

لقـــاح (شعر 1983)

المـــرث (رواية 1984

الليـلة الأولى

يوم فاجأني انطمث ظننتني لا محالة بعد لحظات قاضية . ترقبت النهار سحابته متيقظة . بـدون ما جدوى . لم أمت يومها . ولا الأيام التالية . خيبة الأمل . شعرت اذ ذاك بلوعة الأنوثة تغلبني . تعقدت . توغلت في متاهات التهزيم والتأثيم . ضمدت فرجي الصغير كما يضمد الجرح اذا نزف . برفادة طويلة . أدرتها حول عانتي ألف مرة ومرة . ضغطت بكتانة غليظة على بطني . واذا بفكرة الأموات عند المصريين القدماء تراودني . يا ليتني أتحول الى مومياء مغلفة من أعلى الرأس الى أسفل الأخمصين ! هالني كلام الناس ورمق الأنظار تتفحصني . اكتفيـت بـلأم جرحي السفلي . لففت الكتانة ألف لفة ولفـة . أحطت سري بالكتمان . كيف لا وانني معاقبة ان أنا تكلمت . منذ ذلك الحين أصبحت سكوتة . كتومة . واذا بالنزيف يتوقف بعـد أيام . ولم أتخـل عن الضمادة . تلافيا لما قد يحدث وما قد يقع من تلوث . خـرجت فنظرت الى النـاس والأشياء . فـكأنني

أكتشفها للمرة الأولى • أقزام • مساكين هم الناس • تعساء هم الناس • مجروحون هم الناس • مثلي • مثلي أنا • وما عدت لأنظر في المرآة • وتطغى علي نزعة الانفساخ والامحاء • لقد أصبحت الآن كهلا • امرأة شابة أنا • فتاة أنا • في عنفوان الشباب أنا • ومهزلة • ومسخرة • فما علي الا الانعـزال • فانعزلت • بعيدة عن الأنظار • انزويت •الازدواجية• ازدوجت • فهناك الداخل وهناك الخارج • اظهـار واخفاء • والتلون • أتلون تبعا للظروف • لا مفر من الانفراط •فتحت سجلا ورحت أدون الليليات واملاء الفراغ الليلي • فأحشو بقطن الـكلمات ذاك الأرق المزمن • تتورم الألفاظ في أحشائي • أموت شوقا • أتأوه • أتوجع • وكلي حذر • أحـترز من البوح للناس بما أعاني • فهناك الداخل وهناك الخارج • ترتسم الابتسامة على وجهي بارزة • هذا في النهار• أما في الليل فقد كان القرطاس ملجأي • لكن أثناء النهـار وسـحابة النهار تتـورم الألفاظ بين طيات جسمي • في الليل تتفجر عبوة الكلمات وشحنتها ويخدش القلم الورق تخديشا • بل وبأظافري أظفره• منذ ذلك الحين • منذ تلك الفاجعة الحيضية صمدت• عيب أن أتكلم •التكلم عن مثل تلك الأمور الشخصية عيب • والآن لقد أسقطت القناع عن وجه المرحوم

أبي • وفجأة يظهر لي عنكبوتا متبهرجا ، متبجحا • وفي حركة عصبية دؤوبة مستمرا • لا هـدف له سوى التجلبب بالتمظهر • لقد تقمص أبي في هيئة الرخويات وعندها دخلت طور الصمود في وجه تعسفه وبهرجته وصخبه وهيمنته وهينمه أيام سلطنته • تقلص أبي • تراجع أبي • وفهمت للحال انه جبان • وتحول الى شبح يمشي على شفير الهاوية • يمشي كالمتسرنمين والمتخمرين • كأولئك الذين شاهدتهم في محافل الرقية يوم كنت صغيرة • وبقي دينه وديدنه الارهاب والتهويل والعنف والمساومة الدنيئة مع الآخرين حتى يوم لقي حتفه • وعلى وتيرة وانسيابة تتفرغ علبة السجائر • وكأنني أحاول الانفلات من الأمور • الضغط الاجتماعي ! هو الذي جعلني أمتنع عن التدخين • في الشارع والمكتب وفي انورشات (ورشات العيادات وهي في صدد البناء •) التي كنت أتفقدها • الورشات الموزعة في أرجاء الوطن •والأماكن العمومية • تتنبأ الاشاعات بتخصيص حصة يومية للنساء في دور السينما كما في الحمامات • يوم للرجال ويوم للنساء • السلطات المعنية حذرة • وركيزتها بعض النظريات المنتشرة في أنحاء العالم زاعمة أن المرأة تشكل خطرا مهولا على الرجل • لا بد أنها (المرأة) تحمل في خلاياها

العضدية والعصبية عدوى رهيبة • المرأة معـــدية • مثلها مثل الوباء • تسري منها العدوى كما يسري التيار الكهربائي بين السلكين • وتكاد السجاير تنفد• وبلهف وبنهم أدخن لأعوض عن اللفافات التي فاتتني في النهار • قال لي أحد الزملاء انه عيب على المرأة أن تدخن • مضيفا أن السيجارة مفقـدة للمـرأة أنوثتها • وانها تخلف في فمها مذاقا رديئا يتأفف من يقبلها من طعمه • يا للثرثار ! ويشعل ــ هو ــ السيجارة تلو الأخرى • لم أجبه قط • ولو فعلت لقلت له أن رائحة أفواه الرجال لأسباب عـديدة كريهة • لا تطاق • لقد كان نزيها وتقدميا ونسوانيا • وقد زل لسانه ذاك اليوم • تركته يتخرص (يهدر؟)• لم أقل له أن السيجارة التي يضغط عليها بنو أصابعه ويمتصها بين شفتيه امتصاصا انما تقوم مقام القضيب وان دل ذلك على شيء فعلى نزعـة تخنثية عنـد الرجال قاطبة • اذن أنا لا أدخن خارج البيت • حرام أن تدخن المرأة • فتتلوث مذاق فمها ولذا فقد انزلقت في سياق المجتمع وحرمت نفسي عن التدخين • تراودني بعض الأحيان فكرة اللجوء الى دور المياه في مكان الشغل أو الأماكن العمومية • لكنها أماكن لا تداس • انها أماكن وسخة ، قذرة ، منجسة • لم أغامر • رائحة البول الآسن والتغوط

الجبني والمياه الملوثة التي تظل راكدة ومستنقعة تفوح منها رائحة مقززة ... كل ذلك حال دون التدخين . لماذا هذه الحالة السائدة في المراحيض ؟ لا أفهم . انه لواقع ملموس يعم جميع أنحاء البلاد . معضلة !كثيرا ما حاولت تفكيك لغزها بدون جدوى. لا بد من أن يتوارى خلفية جنسية وراء هذه الظاهرة . نوع من الشذوذ أو ـ على الأقل ـ من التنكيل بالمصلحة العامة . السيجارة تلو السيجارة . يوم داهمني الطمث كدت أموت فزعا . كنت متيقنة أن للذكور مثل الاناث عادتهم الشهرية . أشرت الى ذلك أمام أمي . فقطبت جبينها . لمحت عن هذه المصيبة الى أخي فصمعني وغاص في الضحك . بقيت مشدوهة كالمسعورة . رافضة . متنكرة . ضاعفت عدد الخرق والقطنيات وترقبت لحظة الموت. ولم يأت الموت يومها . هناك على زجاج النوافذ المحيطة بالحجرة راحت قطرات خضراء مزرورقة متقاطعة تتمطى وقد استوتى على اطارها وحددت كامل صفحاتها انعكاسات ظلال أشجار التوتة الضخمة ، العتيقة . وراحت الارتسامات والخربشات تتشابك تشابكا فأجدني مركزة انتباهي على رمدة البخار الخارجي وزفرات دخان السجائر الداخلية والغرفة غارقة في شبه عتمة فاتحة تتسربل من

المصباح الكهربائي الجاثي على المكتب • وظهرت النوافذ وكأنها أطلس يخضره الانعكاس اخضرارا • شبيها برغوة كثيفة على الصلصال • آثار متزحلقة على صفيحة البلور العتيق • انها ليلة ممطرة • البرق يغرز بين ضلوعي نوعا من الخوف الطفولي • أتلذذ به بدون ما تحفظ • شعور طفيف ينتابني واحساس بأن المطر ينظف المدينة من قذارة الغبار والأزبال والقمامة • يتغزر المطر • أتوقف عن الخربشة على الورق • الصفحة مجدرة بحروفي الصغيرة • أنظر الى المطر ينهمر بلا انقطاع • يصعد الى فمي مذاق التربة المشبعة ماء • أنا أبغض الجفاف • كان جدي فلاحا فقيرا • ولذا أحب البخار والضباب والقطرات المطرية المتعربدة على زجاج النوافذ • متاهات ملتزية تتدحرج تتحرجل تتشعب • فالطبيعة تجهل الخط المستقيم • قطرات الماء تلتوي وتنزلق مظللة رماد البلور العتيق المقوزح رغم طغيان اللون العشبي عليه وقد هاجت أغصان أشجار التوت التي تغص بها الحديقة • أسجل على الصفحة هذا التماثل بين مسيرة القلب بدقاته المبرحة بين ضلوعي ، وحبات المطر على سطح أملس • ولا ينفك المطر يمطر • أشعر بأعصابي وشراييني تتمرث وتتميع وتتنقع ، متشبعة بالمياه المبعثرة المطرية • واذا فكرة الطمث

الأول تعاودني • أتيه في تخيلاتي • هـو ذا دمي الحيضي يترشـح منسكبا تاركا فقـاعات مفرقعـة زبدية ، تتفرقع على فتحات قنـوات صرف الميـاه المبعثرة على سطح الفناء • وأسبح في التفكـير • هناك تحت الأرض ملتويات وتعرجات مغروسة مثل هذه القنوات كثيرة لا تحصى • أتقوقع • يراودني الخوف الطفولي من جديد • شعور بالتفاهة والغرابة والغربة يستولي علي • مما يجعل جسمي يتصبب عرقا • مياه معفنة • دماء مهدورة مني • مد فـوق عرق مصبوب • لماذا ؟ لماذا ؟ ولذا لا مفر لي سوى التقوقع والانطواء على الذات • اللون الرمادي يطغى على الأشياء والأفكار والانطباعات التي تداهمني • والرمادي ، بين الألوان ، يدل على الحيـاد • انه اللون المحايد • الكلمات الوجيزة • الـرمادية • التافهة • عودني الرجال على الرماديات • ابتداء من أبي • وأخي • ألم يصفعني أخي اذ سألته عما اذا جاءه الطمث هو أيضا ؟ صفعني أخي • كان له هم وحيد : دود القز كان شغله الشاغل • صار طيارا أخي • انغلق على نفسه • ولا تفاذ ينفذ اليه • ما كان ليخرج الا لمصاحبة الأموات • ولـكم لاحظت أن سيماته ما كانت تنطبع بخاتم البهجة الا أثناء الجنائز • أثناء المآتم • كان يبـكي • يشهق • كالمرأة آنذاك •

لماذا كل هذه التعابير التي كانت تسوده ؟ ياللسخافة. الرجال أكثر تعويلا من النساء . كان يبكي أخي . بدون سبب يبكي . كان يقضي نهاراته محلقا على متن طائرات الخطوط الجوية . وما كان يهمل فرصة لمواكبة الأموات وتشييعهم الى المقابر . كان كتوما . لا يكثر من الكلام . يلجأ الى الاشارات والى الايماءات أكثر منه الى الكلام في اتصاله بزوجته وأبنائه . كان كل يوم جمعة يزور قبر أبي . يقضي أمام القبر الساعات الطوال . أما خطاي فما وطأت الجبانة قط . أنا رفضت وطأها . ولطالما غضب أخي . ولم يفهم لماذا . أخي يرتدي هو أيضا اللباس الرمادي . والأسود طبعا . (زي الطيارين) . أسوة بالطيارين . وكانت الدموع تترقرق في مقلتيه لأدنى الأسباب وأتفهها . أما قلبه فقد كان صلبا . انها معضلة أخرى . كان ينقطع عني سنوات . وفجأة كان يأتيني هشاشا . وقبل أن ينصرف كان يطلب مني اعارته مبلغا من المال مرموقا . كنت أعطيه كل ما أملك. كل ما كنت قد ادخرته لمشروع معين (شراء سيارة ؟ القيام بسفرة سياحية حول العالم ؟ وأشياء أخرى من هذا القبيل .) ثم كان يغيب . ويعيد الكرة . ويحدث أن أزوره فكان يكفهر وجهه . واذا لم أزره فهناك الطامة الكبرى . فكان يشمئز ويرغى ويزبد .

وفي فترات المصالحة كان يصرخ في . ماذا تفعلين بمالك ؟ بلاك ... تموتي وتخليهم من وراءك ... ويطالبني بمبلغ آخر يسلفني اياه ... يستلفني مليون سنتيم ... وكنت أنا أعيره اياه . وأبقى بدون رصيد . وما كان الأمر يهمه . وكان يبذر أجرته في ما لا طائل تحته ولا معنى له وكذا الملايين الأخرى التي ابتزها مني . أما الحقيقة ؟ فقد كانت الخلفيات جهنمية . نوع من الغطرسة . كنت أشفق عليه . واذا بي في احدى الأيام أرفض الاستمرار في هذه اللعبة السخيفة . فلم أعره ولا مليما واحدا . فاذا به على ما أعلمتني زوجته يذهب ، من بعد ، الى المقبرة يشتكي لأبي ، أمام قبره ، سوء تصرفي . وأفهم اذاك أنه عصبي ومعصوب . وكان هذا من مزاجه . وكان لا رجعة عنه قط . كان قد صفعني اذن . يوم بلغت. وقد تدفق الدم مدرارا . لوعة الأنوثة ! لقد دفعت لأخي ثمنا باهظا . ثمنا جسيما . سلخته من مدخولي الشهري . انها عقدة ايكار . نصفها تعال ونصفها سقوط . كانت مطحونة فيه . وكان مطحونا بين حجرتيها . أنا لم أبك قط. ولا أعرف للبكاء معنى . تركت الدموع ملكا لأخي الطيار الذي كان أصغر مني سنتين فقط . ورغم طلاء الندى والرطوبة في فصل الصيف ، أظل جافة . لكن مسامي لا تفرز ولا

قطرة عرق واحدة . جافة أنا . وقلبي جاف أيضا . هذا ما علمني الرجال اياه . علموني أن أقهر قلبي . ألا أتركه يتعصر . هم يسبحون في وردياتهم الرديئة وكلثومياتهم المتقطقة (الحب كده ...) . أما عيناي فتبرعتا بدموعها كلها منذ الصغر . أهديتها أقربائي . أصدقائي . عشاقي . أمي أيضا . هي أيضا كانت نادرة التأثر . أما حركاتها ـ لفرط وضوحها ـ فكانت تجعل الفضاء والأثاث والحيوانات والعباد وحتى الظل يلمعون حولها . كانت حريصة كل الحرص على خلق بينها وبين الناس ـ بما فيهم الوالد ـ وبين الأمور مسافات شاسعة . وللوهلة الأولى فهمت . عن فطرة . فهمت أن لا جدوى منه (أبي) البتة . لقد كان الرجل أنانيا . متغطرسا . مصابا بمرض التنقل من مكان الى مكان . لا يعرف للاستقرار معنى . (الهروب الى الأمام ؟) كنت اذن مطلية في الداخل بزنخ ومخاط أسود لزج خاثر رائب . وينحدر الليل على التوتة المتأججة الزاحفة أغصانها بهمجية مخيفة نحو النافذة المغلقة والعالم من حولي يسقط في الغفوة . رويدا . رويدا . كيما يتسنى لي فهم ما يحدث في الوطن وقد عمت اللهفة أرجاءه ؟ كيما يتسنى لي فرز الأمور السياسية والاجتماعية والنفسية وقد تشابكت كلها

وتعقدت حتى أني تهت في متاهات المـدينة وأنـا أشاهدها من نافذتي (من خلال التوتة المجنونة) متدحرجة ، متدرجة درجات ومستويات مستويات بين البحر والهضاب صعدا . تجهل المدينة ما ينخرهـا في الداخل من وباء وهي غائصة في غفوة بلهـاء والمتمثل ـ الوباء ـ في تضخمها وتكرشها وتسمنها من جراء ما انتابها من نهم ووصـولية وغـرور . أشاهدها اذن ـ المدينة ـ متدرجة درجات درجات بين البحر والهضاب صعدا . الميـناء وشـم أزرق مخربش بالهياكل والرافعات والمصندقات الضخمة . انه لطخة ملونة على خارطة الكـارثة . والقصبـة العتيقة ـ المواجهة له ـ التي لا تفتأ تتخرب وتتهشم وتتذبل وتتطعون (الخراج ؟) . أخربش . أكتب . والشوكة تجرح الورق الناصع البياض . تخدشه فتحول المداد دما . كلي رغبة في زرع أصـابعي وأظافري في هذه المادة الصماء العميـاء فتصـاب الكلمات بندوب لا يمكن اندمالها ولا انغلاقها قط . ما أريده هو كتـابة الحروف بل نحتها بالمشرط ، ويفيض النص مثلما فاض دمي بين فخذي . ولما أبلغ الثانية عشرة . تتأجج الكلمات . لعله الخريف ؟ انه الفصل الذي يجعل الضوء يغلي في دماغي غليـان الماء في اناء مبعج . تتفتت شراييني . أصبح شبقية

الحواس • الكبح • الــكبت • القهــر • أصبــح مسامية • ويخدعني نوع من الوحدانية الدبقة • الفراغ • هذا الشق بين فخذي فلكم أريد بتره فأقتل الشهوة في • ورغم ما في الرجال من تصرفات غريبة ومن جبن فقد تساورني الشهــوة المفترســة الملتهمة الملتهبة من حين الى آخر • لكن علي بكبحها • أصب على فرجي ماء مثلجا وكفى بالله سبيــل • قصاصات الورق أملأها تشطيبا (جذاذا) الى حد الابهام والتجريد • لن أترك من بعدى ولا رسالة استفسارية واحدة • لماذا ؟ اذا مت فسوف يتكلف أخي العزيز باقامة مأتم فخم مشهود له • أليست هذه موهبته التي ينفرد بها ؟ أما الطيران فهو في نظره حرفة ليس الا • فقط • الورق يفتح في المجال ويخرق الفضاء أمام هيروغليفية حروفي الرديئة (ولكــــم وبختني معلمتي على رداءة خطي •) أشبه ما تكون بالرموز • هذا هو مجالي للتيهان في محاور الخريف وسقمه • الأفق الوردي يرسم خطا دائريا رغم العتمة التي حطت على الحديقة • (التــوتة تلعب لعبتهــا كالمعتاد في مثل هذه الأوقات الأصيلية •) والمطــر الــدافيء لا ينفك يتساقــط • من وراء البلــور المزركش • ينهاوى الليل متلبدا في الفضاء • عيناي أصبحتا صرديتين • لكثرة ما حدقت في تفرعــات

التوتة الثكلى الساعات الطوال (ألم تفقد كل ثمارها في آخر الربيع ؟) وأجوب المتاهات التي تخلقها والانعراجات التي تجردها الى حد يجعل الهواء في الغرفة شبه عمودي (لعله دخان السجاير ؟) يمتلكني الندم في تلك الساعة . الخشوع . أحزن لما أكرسه من عنف وكراهية ضد الرجال ولما أشن ضدهم من حروب . كنت أتوق الى عيشة مسالمة . لكن أخي صفعني يوم ... والرجل الذي عشقته فض بكارتي وقال السلام عليكم . المرأة التي تفقد عذريتها قبل الزواج ليست شريفة . قلت طبعا بل بالأحرى هي قحبة . كان زميلي . طالبا في كلية الطب . تظاهر ـ في الأول ـ برقة الشعور وانفتاح الفكر . لقد احتقرته وكل الرجال معه . كان يذرف الدموع وهو ينشد شعر عمر بن أبي ربيعة . وتنتابني نوبة من الضحك . صوت المؤذن ينقض كالصاعقة . فجأة . فأرتي البيضاء ـ يسمينة ـ تنتفض ذعرا في قفصها . أمرر أصابعي على فروها من خلال قفصها الموضوع على منضدة النوم . لقد أزعجها صوت المؤذن الصادر من خلال مضخم الصوت . يسمينة حامل . أخاف عليها . وأعاد (عشيقي) الكرة مع زميلات أخريات وكان في خطته ناجحا . الا أنه بين الناس أتعسهم . أرغم على الزواج قهرا من امرأة

ثرية ذات أموال طائلة . وأصبح وديعا طيعا كلبا تمرن على الوفاء لمن يمده طعامه (الكلب يتبع لوكلو) . ان هذا التصرف في قنص النساء صار عادة وتقليدا عند الرجال . حتى اذا جاء آخر من بعده متملقا متوسلا قلت له فجأة تعال تتضاجع ولا تزد خرافات وهراء . خشي وخاف مني . لملم ذيله وولى هاربا . وهلم جرا . جاء آخر . ومن ثم آخر . وكلما حدثني عن الحب أحدهم قلت له كف عن هذه السخافات وتفضل . فنل مبتغاك وانصرف ... انك لست شغوفا الا بثغرتي . ما أن تنالها حتى تذهب . وتتزوج عذراء أصغر منك بكثير . تخطبها لك أمك بدون أن تراها قبل ليلة الزفاف . بكى . صفعته ... وهكذا دواليك . الألوان كامدة . الكلمات تسلخ دماغي سلخا . أقر صراحة . لولا هذا النوع من الرجال لكانت حياتي خالية من كل معنى . أتحمل كدري لوحدي . وكلما تذكرت تجربتي الغرامية الأولى راح قلبي يدبق دبقا . أقر حقا أن للرجل ، في بلادنا ، قدرة على التمثيل هائلة وعلى الالقاء وعلى الترنين ، كذلك . ينزلق الوقت بخطى حثيثة . ولحسن حظي فانني في الليل أواصل تحرير يومياتي (ليلياتي ؟) . لن أتركها لأحد من بعدي . انها محاولة ، ليس الا ، لفهم بعض المعضلات

التي صادفتها منذ أن بدأت أفهم مرارة الحياة وما ينطبع الواقع به من سواد • أقضي سحابة نهاري في العيادة أعمل في الأحياء الفقيرة المحرومة • وبعدها أعود الى البيت فأغوص في لجة الفراغ • في العدم • في اللاشيء • ومع ذلك فهمومي عديدة متعددة • أخاف من الشارع • الازدحام • الذكور • انهم في حالة ودقان دوما وأبدا • على أن هذه الفظائع ، والمخاوف والاستيهامات لم تكن هي السبب في ما أعاني منه أرقا • ولدت مفتوحة العينين • هذا ما حزمته أمي في هذا الصدد • ومنذ ذلك الحين لم أتغير • حتى صفعة أخي التي صفعني اياها يوم سألته عن الطمث هي أيضا ــ رغم شدة الصدمة وقساوتها ــ لم تكن عائقا لي في النوم • جعلت من الحذر مبدأ لحياتي • أبقى يقظة متيقظة لوحدي والعالم كله نيام • ولا ينفك المطر ينهمر والزجاج يتحول الى الأزرق الفحمي (مثل وجه المشنوقين الذين رأيتهم في المستشفيات) أزرق فحمي • هذا اللون يلازمني • أصبح لي هوسا مريبا • الانتحار ؟ لا • لا • أبيت الانتحار • هنالك طرق أخرى للانعتاق من الهوس • تعلمت في الكلية أن الانتحار شنقا هو تقليد من تقاليد الفلاحين وأهل الريف • هنالك طرق أخرى • قلت هي أيسر من الانتحار

وأريح . ولنترك هذا الهاجس . اذن الزجاج يتحول الى البنفسجي ويقع الفضاء فريسة العصافير المحلقة بطريقة بهلوانية ــ متسرنمة ؟ ــ ورائحة النعناع الممزوجة بعطـــر مسك الليل تعبق الجو . ولا يني المطر يحفر أثلاما (ندبات) طويلة على الزجاج . يخال الي ــ برهة ــ أن الماء المطرى تحول الى جداول من دم تسيل على الزجاج . بسرعة أسترجع قوتي . وجأشي . ولكن الولع من هول الفزع يطن طنينا على وتيرة تتجاوز دقات قلبي سرعة . تنضد يداي عرقا . وتزداد أنفاسي تصاعدا مستمرا . ومع الظلام الذي ينقض فجأة وبشكل نهائي ، وقبل أن أعمد الى الضغط على زر المصباح الكهربائي ، ينتـــابني احساس غريب بفقداني حواسي ومشاعري . بياض ساطع يبهر ذهني طيلة ثوان معدودة . مذاق العدم واللاشيء واللامعنى . يغمـــرني نوع من الجـــلاء والتجلي . يا للنشوة . وما يمكنني بذله من جهد لعبور هذا الفراغ الأبيض الذي راح يلفني بصـــرد جليدي ؟ يبقى القلم عالقا فوق الورق الذي أصبح نوعا من الهاوية . ورغبة مني في الانفلاج ، على غرار أغصان التوتة ، أعيد قراءة الجملة الأخيرة . أشطبها . فأتردد ثانية . فكتابتها من جـــديد . فالانفلاج . فالانقصاف . لا ! سوف لن أترك هذه

الليليات من بعدي • ساحرقها في الوقت المناسب • كل كتابة زلقة ومهذارة • لن أكتب عن السياسة • هي من الأمور العويصة • أحدس أن الرقابة الذاتية تحيل دوني ودون التحاليل السياسية • الأفضل ترك هذا الموضوع جانبا • السياسة لا تكتب ولا يهدر فيها • السياسة مجموعة أعمال عملية • لأترك هذا الموضوع الحرج • طبعا : الرقابة الذاتية ! لها دورها في هذا التخاذل • الجبن • الخيانة • عمـــلي في العيادة يعفيني عن اللغو في هذا الحقل الجوهري • أمي أمية لكن أخي الصغير قادر على الافصاح لها عن كل ما دونته منذ بضعة سنوات في هذا الكراس• أمي لن تفهم ما في انتحاري من معنى • أعرف كيف أقضي بدون أن ينتبه الى ذلك أحد فيظن في ظنا سيئا • أمي امرأة متدينة ولسوف تتألم ان هي فهمت أن ابنتها الوحيدة (ناهيك عن ابنيهما الذكرين) قد انتحرت • اني في هذا الموضوع لمتصرفة بكل علمية • لن يفيق ولا ينتبه اليها أحد • سيظن الناس أن ميتتي طبيعية • انه لأمر بسيط • وحتى زملائي الأطباء سيظنون هم أيضا ما أريده منهم • كلنا يعلم أن عددا كبيرا من الانتحارات يمكن طمسها • لقد قال لي عشيقي الأول انني وسيمة جدا • وجهك قمرة وحواجبك أهلال • قلت في نفسي انه يصرح

بماهومباح.لو كان صادقا لحدثني بإباحة عن الثديين والالية والوركين والفخذين و... الثقبة . الثقبة . الثغرة . الشق . الجرح الانثوي . هنا باب القصيد. أما عن جمال الوجه وقسماته والعينين فهذا من باب الأدب . أردت تلقينه درسا في الصراحة لـكنني وجمت . فتراجعت . واذ هو يثرثر ، ساورتني فكرة التحدث اليه عن قصة الصفعة التي صفعني اياها أخي الأصغر يوم ... ووجمت فتراجعت أيضا . تركته يبربر مسهبا عن الحب الأزلي . وظل على هـذه المنهجية سائرا . شعرت ببلادتي . شعـرت بأنني متكلفة . ولـكن ما العمل وكنت أحبه ؟ ففسحت له في المجال . لا أعرف رجلا الا وكان أرعنا أمام عرى النساء . جاءني الغثيان سالكا عمودي الفقـري . وملأ عظامي صعدا بصوف الطفولة . ذلك الصوف الذي يغسل في الحديقة تلك التي تطل عليها غرفتي وقد نخرت زجاج نافذتها البلـورية تلك التـوتة السرمدية التي لم تتغير قط فبقيت على حالها وأنا مشرفةالآن على الخامسة والعشرين.انه الصوف الذي يغسل فيالحديقةوراء المطبخ أو ذاك الذي يحشر في فمي أثناء الكوابيس التي راودتني منذ البداية ، فيملأ نخاعي العظمي بعرق ثقيل وصفيق .. ولـكن

الأوان ؟ لقد زال وفات الفو ت. فطالما كان الأمر متعلقا بالانصياع الى النظام الاجتماعي الطبيعي الذي تفرضه المنظمة الاجتماعية وهو عبارة عن لعبة معروفة أوراقها ، معروفة ومكشوفة ، تلعب العاطفة فيها دورا أساسيا ، فأهلا بها . لكن الاشكال الآن قائم في أن الأمور انقلبت رأسا على عقب.فهمت أن الأوراق في مجتمعنا بدت مغلوطة . يطغى عليها النفاق والغش والزور والخديعة والتهريب والسرقة . ولكم تغير مجتمعنا بسرعة . فهمت أنني لست في نظر الرجال انسانة بل ثقبة ليس الا . مهبل . برظ . كل الذكور وحتى المرضى منهم يحاولون اغرائي . مساكين . يتآكل السرطان أعضاءهم ولا يفكرون الا في الانتفاض . مساكين . ويخيل الي وأنا أمارس الكتابة واليد تسير على القرطاس حثيثا أن فقرات عمودي تمتليء رغوة من صابون الحلاقة (كان أبي يصنعها في صحيفة من خزف صينية الأصل . يقضي في صناعاتها وقتا طويلا . اني أتذكره واقفا في البستان . يحرك فرشاة الحلاقة في الصحيفة ، صحيفة من خزف صينية الأصل .. وقد بقعت الشمس وجهه .فأبرزت شعر لحيته الأشقر) .الخوف ؟ لكن : نظراتي زائغة والقلق المسيطر علي يعيق جملة أعصابي فتتعثر يدي ويرتعش القلم الحبري . فأدرك

فجأة أنني لم أتوقف عن التغرب قط ، خشية الغوص في مشاكل واشكالات حياتية أكثر اتســاعا من ذي قبل • لا قدرة لي عــلى محوها أو تلطيفها عــلى الأقل • وخشية الغوص في أماكن أخرى (ما بعد الموت) كنت مرهوبة الجوار•أم رؤوف ربتني ودللتني ثم وجدت نفسي بدون ما مقدمة ولا تأهب بين أياد قذرة الى حين تلك الانتفاضة القاطعة (قال : المرأة الشريفة لا تضاجع الرجال بمثل هذه السهولة ••) ومنذئذ انقطعت عن مواجهة العالم الشرس فافتقرت الى الشجاعة لمواصلة السير • (الى أين ؟) الى أعمق أعماقي • باحثة عن نفسي • محاولة شرح الواقع الاجتماعي وتحليل تصرفات الناس فيــه • دقت الساعة العاشرة • اعتلاني الشــحب واستبد الرعب في • ذاك الذي يرسل اشارات زرقاء وحمراء حافرا تحت بشرتي ذلك الوشم المرسوم على جبين أمي ذات الحساسية المفرطة والقوى المنهارة والدموع المتململة في العينين أبدا والضحــكات المسترسلة • شعرت وأنا أفكر بوالدتي بأن روحي أخذت تنسحق انسحاقا • عاصفة لزجة بدأت تغلي ما بين جدران الجسم • انها الرغبة في اطلاق العنان لصرخاتي • أريد مناداة أمي واذا فمي ينغلق • وشــم الحياة عبارة عن رسم بحري الزرقة وما الزرقة سوى رغوة

المياه الانثوية المصقولة بالزمن البشري الرديء حيث تستقر البرودة والرطوبة والطحلب •• قمر أعشى • سعال فتاك يقتحم ضلوعي •• بلدي غريب • فيلم عن حياتي متعرج يعرض بصورة عكسية •• مثل التعداد التنازلي العـــكسي 6•5•4•3•2•1• (انه اليوم الذي اخترته لأنفذ عملية الانتحار) •• عند مخرج السيلان والمداد ينصاعد اذن اللون البنفسجي• يتصاعد الى دماغي متفجرا من أعماق الورقة التي عليها أكتب انطباعاتي • ألقي نظرة كئيبة على حياتي الماضية • ها هي ذي سنوات الطفولة والطمث الاول وشراهة التوت المشبع عصيرا فى شهر ماي اذا مـا تفجر النعناع فى الابريق وتبـخر فى الصباح حين تعجن الوالدة الخبز وتخمر العجين وتتطفل عـلى الطلاسم وتربك خيـوط التلاقي بنشاطها المعـهود وحيويتها النابعة من كيانها العميق (سأموت عـن قريب ••) فمي : انه مليء من نترات الحياة وسمعي ملؤه الزغاريد يوم صرت طبيبة وملؤه العويل يوم جاؤوا بجثة شقيقي الأكبر : جرح دامل لا ينغلق • ندب لا يتوقف • جوان 1956 • جاؤوا بجثة أخي محمولة في تابوت مختوم بطابع الجمارك (بالشمـع الأحمر •) عودة الابن الضال • كان قد قطع البحر لدراسة الطب والتخصص فى الجراحة • قبض عليه

متلبسينه بجريمة مساعدة منظمة التحرير . كان يقوم بالعمليات الجراحية فى احدى الأقبية بمدينة باريس ويخيط جروح المناضلين . ألقي القبض عليه فكان التعذيب فالقتل فالوضع فى التابوت المرصص. وعند وصوله الى الميناء راح يتأرجح في طرف الرافعة كأنه يسخر من الشرطة والجيش الاستعماري على السواء . كانت الحرب تدور رحاها بلا هوادة . صممت آنذاك أن أكون طبيبة مثلما فعل هو . أصيبت أمي بمرض السكر نتيجة الفاجعة هذه . ومكثت طويلا واجمة لا تنطق ببنت شفة . كانت تجلس فى فناء الدار تحدق فى دبق السماء حيث السنونوات تسبح : تلك الطيور العريضة ذات الأجنحة الفحمية وقد كانت تصطدم بالستائر المصنوعة من القماش الخشن الذي كانت ترقعه أمي كلما راحت هذه الطيور الفردوسية تحدث مثل تلك الثقوب اللعينة الى حد أنها (أمي) لكثرة انبهارها وسهيانها كانت تنسى ما كانت تقول فلا تتذكر تسلسل كلامها وسياقه . فقد كانت تخاطب نفسها . أين كنت ؟ ماذا كنت أقول ؟ آه ... ها اني متذكرة ... علي ألا أنسى تزويد الطيور من حصتها العادية زوءانا وماء .. فهي من أحب طيور الله له . وبالتالي فابني الفقيد سوف يدخل الفردوس لا محالة ... سيولة الحركة الغامزة برتقاليا وازرقاقا.

كأنه حلم انشطر الى شطرين فاسحا لي في المجال لاستخرج منه الألوان على أنواعها والانطباعات الغامضة المتخمرة داخل النعاس وقد راح يدغدغ خلايا الجمجمة . أخذ الليل يشوط وقد سكن كل شيء . اعدا صرير القلم الذي كان يلاحق الكلمات كلمة تلو الأخرى فبدت وكأنها مكسورة ممحوة مشطوبة مبعثرة في فضاء الورق الناصع . كلمات يبقى معناها لغزا بالنسبة الي (هل هو تأثير الأرق ؟) وكأنني أصبحت حشرة تائهة في هيكل الحويصلات التي تستخرج منها شهدها . أقبع هكذا مأخوذة بين الانتجاع والتفكير فأتذكر أصياف الجفاف في القرية الجبلية التي كنا نقضي فيها فصل الصيف . أما المذاق السائد هناك فقد كان مذاق القرفة الممزوج بالهواء الجاف المعطر برائحة المشمش الطيبة وقد كان يجف على سطوح القرية . وكان قد أفرغ من نواته وقطع نصفين فنشر مسطحا على القرميد مباشرة ، القرميد الألفي القدم مضيفا (هكذا) التهابه الى التهاب الزوال الفادح الزاحف . وكان الهواء جافا ملتهبا عابقا برائحة فواحة وكأنها نابعة من محم جبني نتن فيفوح الجو اذاك برائحة الصوف المبلل ، الوذخ ، مرسلا نوعا من مادة سميكة رطبة كنا نمرح فيها نحن الأطفال وقد كان الكبار قد تركونا

نلعب كما نشاء ونذهب الى حيثما نــريد • ان لفي ذاكرتي ــ وما كنــت لأبلغ آنذاك الخامســة من عمري ــ وعلى بشرتي انطباعات وأحاسيس ما برحت حتى الآن مطبوعة في الى درجة الاختلاط ــالمتقطع ــ في الزمان والمكان • وكأنني زودت الى الأبد بضرب من الحدس اللماع الباهر كالمصبــاح ذي الوتيرة التشنجية والنبض المرتعد وكالــذي يرى مستعينا بضوئه الذي كان تارة يقوى وطورا يخفت راسما منحنيات التوائية مثلما يحدث حين يصور كهربائيا دماغ مريض غاص في الغيبوبة بعد أن أصيب في حادث مرور أو لمرض ما أيا كان ــ وكذا دماغي أنا وقد راحت تصدر منه أمواج كهربائية غير منتظمة سريعة أحيانا متقطعة أحيــانا أخــرى وحتى ــ في بعض الأحيان ــ وهنة ضعيفة مفادها أن الموت صار قريبا وقد أنذر باقترابه مع فارق ضئيل وهــو انني لم أحدس بوفاة أخي الأكبر الذي جيء به من فرنسا في صندوق مرصص ومشمع بطابع الجمارك الأحمــر • ويبقى صريف القلم هو هو والصمت شامل • واذا صوت المؤذن يزعق • مناديا لصلاة العشاء • فأتقزز له لشدة ما ترن أذني من قوة الصوت وجهارته • الجامع الجديد بنوه في أسفل الشارع • المسجد ؟ براق • لماع • عصري • حديث • أما هندسته ؟ •

رديئة • تبعث على الضحك • ويجبرني الآذان قهرا على الانقطاع عن الكتابة والتوقف برهة من الزمن • وأما الصومعة فهزيلة وقبيحـة المنظـر • قضيبيـة الشكل •(لماذا؟) الفأرة المسكينة ترتجف خوفا • لها (الصومعة) درج يفضي الى أعلاها • لكنهما (الصومعة والدرج) غير مجـديين اذ أن مضـخم الصـوت الكهربائي هو الذي يبث صوت الاسطوانة المسجلة مسبقا • ما زالت الجماهير تفتقر الى الدين الذي هو وسيلة وقائية تقيها من الآفات الطبيعيـة والمشاكل الدنيوية • لكن التطير سباق في مثل هذه الأمور • كان أبي رجلا تقيا • لكنه رفض أن يحج الى مكة لأسباب سياسية • قال انه يرفض دفع أمواله لدولة ثرية متعصبـة في سبيل مصلحتها الخاصـة ومصالح أمرائها • وينطفيء صوت المؤذن • تعود السكينة الى الديار • وأعود أنا الى أدواتي • أكتب • لم أكن من ذي قبل في أية مناسبة من حياتي على مثل هذا الوضوح الذي أنا فيه في تلك اللحظة عـلى أنني ما كنت لأنسى أمواتي لا ، ولا لوعتي • قررت أن أراجع ليلياتي كلها • ما حيلتي وقد كرست لها بضع سنوات من حياتي القصيرة • واذا بي أقرأ وأتصفح وأراجع وأصحح • أقرأ٢ فأعيد القراءة ممعنـة في الكلمات خاصة وأن الأحداث الحاوية في هـذه

المجموعة من الأوراق يستعصى فهمها أحيانا من جراء ما فيها من تشعبات وتشابك وشحنات منها الواضحة تارة والغامضة طورا • قررت أن تكون هذه المذكرة العائلية الشخصية معا وفي آن واحد سهلة المنال • لاحظت أن الأسلوب انعام يصعب فكه وبلورته لما يحتوي النص عليــه من أقــواس واستطــرادات والتواءات • فتأتي الجملة وكأنها جملة نهر جارف أو نهر مهدار سكب في قالب جملة واحدة • وضعت النقاط • جزأت النص اربا اربا • نوع من الرقابة الذاتية • أقرأ فأكتشف أمورا كنت قد كتبتها بدون ما وعي • كتبت هكذا على وتيرة همجية عشوائية • على أن هذه التعديلات انتي أدخلتها على النص في شكله الأول لن تغير من المحتوى أصلا • قرأت اذن مرات عديدة • قرأت كل ما دونتــه تحت ضغط الغضب والصخب فالتهمت الصفحات التهاما • كنت وأنا أراجع هذه النصوص وكأنني خائفة أن يداهمني الموت قبل أن آتي على اتهائها • أما الأوراق فقــد كانت عبارة عن مسودة تكدست وتبعثرت • وما أن أكتشف خلفية ما كنت قد انتبهت اليهــا حتى أعيد الكرة فأقرأها بصوت عال رغبة في فهم بعض المعاني المبهمة وبعض المفاهيم الغامضة والألغاز التي لا بد من فكها وبعض المقولات المطبوعة بطابع اللاوعي • ومن

ثم وبعد الانتهاء من العملية هذه أخذت أكتب من جديد أكتب وأكتب فأستغل هذا الأرق الذي نزل علي تنزيلا . أكتب اذن وأكتب . وقد ساد السكوت. ليس على المنزل فحسب بل ـ حسبما يبدو لي ـ على العالم كله . أكتب ... وأكتب ... وصريف القلم يكون نوعا من المأثورة الجنائزية أو الأرجوزة. والفائدة من كل ذلك : صريف القلم . ليس الا !

الليـــلة الثـانية

وبقيت هكذا أكتب تحت تأثير هذا الصريف كالموسيقى والمخدر وقد كادت الصور تنثال على ذهني متسارعة متباطئة فلا تلبث أن تسقط في مهاوي الذاكرة التي كانت شعلتها لبعض الوقت تحبو • وسرعان ما كانت تطفو هذه الصور على السطح على شكل فقاعات تطقطق عبر ملوحة العزلة فتندفع خارج الحجرة التي كنت قد حشرت نفسي فيها بعد عودتي من العمل لتنفتح على الأفنية المجوفة التي تسيطر عليها طقوس الألاعيب المائية والتلميحات التكرارية وغيرها من الترجيعات المتمازجة مع انطباعات معينة خارج الأفنية فتكاد الأذن لا تفهمها لقلة مؤالفتها • واذا بذبذبة ترجرج عيني وكأنها حجارة صوان مترجرجة أو حبات مسبحة أو أقراص أو حبيبات نورية تتبعثر على أهدابي الى غير ما هنالك من رؤى أخرى متسلسلة تسلسل صفاقة الهواء المثقل بطبقات الدخان المكثفة المتراصة حوالي في ضياع الليل الأبهم • بل ويخيل

الي لشدة ما أعاني من الأرق والارهاق كأن هنالك حصاة تقرع على دماغي المثقوب بصفير الصمت العميق أو كأنني أسمع تنهدات أجسام متدلية على شفير التفسخ والتشتت والتفتت • وبسرعة وميضية تعبر أقطار نفسي قوافل من الجمل المهومة ، المنغلقة ، الغريبة ، ودوامة من المقاطع المدقوقة ، المبتورة ، المثقوبة وسلاسل من الأرقام والشفرات البالغة التعقيد وأصداء من الأصوات المشوشة المتداعية من غياهب النائمين ، وعاصفة من جعجعة الخطوط المقطوعة ، المترجحة قد امحى كل أثر لها هنا وأعيد نسخها هناك • ومن ثم تعاودني صورة الأزقة والمسالك وروائح البخور وتلاوات الآيات القرآنية • وكلما رحت أفكر في مقتل أخي الأكبر الذي مزق جسمه تحت تعذيب الأوباش كنت أتذكر على التوالي أعراس الأحياء القصديرية حين كنت أتردد اليها بغية اسعاف المرضى والمحروقين والغرقى • فأغطس اصبعي في الحبر الصفيق المندفع من تلك الرخويات التي كنت أطاردها رفقة أخي الأصغر (الطيار) بالقرب من بحيرات طفولتنا الوديعة • فكانت الحروف اذاك تندلع • ويصبح التمرس على الخط نزولا عند رغبة الأمر الرباني • تهاويل تغلق النوافذ وتحول دون ذهاب النسوة بأنوثتهن الى أقصى حدود أجسامهن •

ذكريات تدور رحاها حول الأفنيـــة المســـجدية التي زرتها فيما بعد • صيف قضيته في محاولة العثور على المكان الذي قتل فيه أخي الأكبر (الجراح) ••• أعراس الأحياء القصديرية الفريدة من نوعها • حبر يجف بسرعة فائقة مثل دم تلك الفتاة التي ما زلت أذكرها وقد أثارت فضيحة كبرى ليلة عرسها • لقد انتحرت بعد أن شرح العريس أنوثتها بهمجية ليس من بعدها ، فاضطريت الى تخييط فرجها بأكثر من عشرين غرزة • قضت المسكينة ليلتها وأحشاؤهـا تتمزق تمزيقا وعروقها تلتهب التهابا فيما راح العريس يشخر بعد عمله البطولي ، راضيا مرضيا وموضـع اعجـاب ورضا الأهـالي والجـيران والأصدقاء • فوجـدوها في الصبـاح ميتة ملتفة بكفن الهلـع والرهبة • وفهمت أن أحدا بعد التحقيق لم يجرؤ على رفع ازار العـذرية لمـا تعسر التميـيز بين دم الشرايين المتقطعة بالسـكين ودم الفـرج المهشـم بالقضيب • ولقد تنكر والد العريس لبنته وغضبت الأم من نفسها فخجلت على نفسها دخـول الحمام المجاور • لم تستطع العروس أن تحيط نفسها بأية هالة فماتت ميتة العار والفضيحة والكفر المـذل ، دفنوها خفية في مقبرة محدبة محدودبة منحدرة نحو البحر وذلك بفضل طيبة قلب حفار القبور ورأفته بالعباد •

أما الامام فقد رفض الترحم على روحها فتنهد متأوها من الكفر وعصيان الخالق • أما الزوج فلا ندامة ساورته ولا حزن يمسسه • فعلام يندم ومم يحزن ؟ جل ما فعله أنه سارع الى تحرير رسالة الى شيخ القرية مصرحا عن أنه باحث عن امرأة أخرى جديدة تتناسب وأذواقه • وقد كلف معلم المدرسة الذي اشتهر بمهارته في تدبيج مثل تلك الرسائل بصياغة الكتاب • فرأى المـــدرس في ذلك فرصـــة سانحة للترحال في تضاعيف الكتابة وتعاريجها • لما اعتاد عليه من ايجاد التناغم بين فن الخط وعبقرية التجـويد القرآني • وقد كان للمعلم أسلوبه الخاص سواء أكان في رسم الحروف أم اختيار المفردات بعيـــدا عن التكرار والقوقعة • كنت أعرفه تمام المعرفة • فما كان ليخلو من مس في عقله ولم يفت الأمر على أهل الحي القصديري جميعا • على أن أحدا لم يتجرأ على مجابهته ومصارحته بذلك • فالخطاط اختصاصي في كتابة الحروز ورسم الطلاسم على السواء • وقد كان يبلغ ذروة الوجد حين كان يقولب على اوحة الكتابة تلك الشرائح الحيـــاتية التي كـــانت تتابع تخيلاته فيجعلها في أسمى مكان ومقام بدلا من حكيها على طريقة السرد التافهة • وما ذلك الا لأنه كان يتأفف من العمل السهل فينتشي بأسلوبه الخـــارق بتلـــك

الخطوط التي تحفر على رقوق الوهم ورقاقات الخيال حيث تنسحق الأنساب والأصول ويتبعثر الواقع والمعاش وتندثر الاشارات والدلائل وتنفسخ حبكات السرد وآثار النص المكتوب . ولم يكن هذا المعتوه لينشغل باله بهذه الظواهر بل كان شغله الشاغل ابراز جسد الخط المنسوج أمامه وهو يتضوء بسائل المادة التي كان يصنع منها مداده. فكان يذهب بعيدا بحثا عنها في مستنقعات لا يعرفها سواه وقد لقي الاخرون حتفهم في محاولتهم الى الاقتراب منها بدون أن يشير اليهم هذا الشيخ المهوس المتهوس ... وفي آخر المطاف لم يبق الا ذاك الندب الذي يحدثه الخطاط على الورق . أما مسألة المحتوى والمعتنى ودقة الأفكار فلم ير لها أثر وما كان لها في نظره أي شأن . ذلك أن جوهر الأمور في رأيه هو يكمن في غير هذا الأمر . كان شيخنا يحتكر الاشارات ويلقي المعاني في زاوية المهملات . لا سيما وأن الأداة التي تنقل ما يقوله هي عبارة عن مبضع من القصب يقطع به لحمة التاريخ الحية ويسحق الكلمات البالية . فاتحا ـ هكذا ـ لها آفاقا واسعة لا يمكن تصورها فيغلقها حسبما يشاء وحسب رغباته الجهنمية ويربط فيما بينها . فلا يفضي جهده الا الى تنظيم شبكة

سميكة فضفاضة من الاشارات والخطوط هي أقرب الى الهذيان منها الى فن التراسل والمكاتبة • فتصبح المسألة عند نظيره من الناس تدنيسا لقداسة الابداع وتسفيفا بالالهام الرباني • الآن وقد أتخمتني السكينة المسيطرة على الدار لم أعد أفهم جليا كيف تبرز تلك الحفنة من الذكريات بيسر يبهر العقل بعد أن ظننت أنها قد دفنت الى الأبد في طيات جسدي الذي صار يعب الأرق عبا • على انني كنت أشعر بنفسي وكأنها محاصرة بالهوامش التافهه والحواشي المصغرة التي تتراءى عليها مواكب من الانتاج التي كانت قد نسيت منذ أمد طويل : أبي المفقود ، أخي البكر المقتول ، أخي الأصغر المعصوب ، مدائن زرتها أثناء الدراسة ، انتحار العروس في الحي القصديري ، رؤيا الخطاط المعتوه ، انبجاس الجوامع المتراصة في هندساتها المبتذلة ، تناطح المدن المكتظة ، همجية المؤذن وغطرسته ، افتتاني بالفأرة البيضاء الحامل ، علاقتي الودية مع عم سعيد بواب العيادة الشيوعي الخ ••• حاشية مصغرة اذن تسير متواترة مثل خنفس يتبختر متهاديا بعنجهية ودلال ، على ما هو من تشنج يثقل مشيته ويحورها عبر السراديب والحوامض ، عبر الأقمار والأسماك ، عندما كانت أمي تجلس في باحة الدار فتذيب الرصاص وتغطسه في المياه المجمدة

فيتاح لها أن تقرأ المستقبل على الحراشف وتضاريس الدوار • وأنكمش على نفسي فأكاد أفقد الشعور بالاستدارات المرتعشة على الورق المصقول ، أي على سندي الوحيد الذي يمكنني من العيش في هذا المحيط البشري المريع • انها حاشية الذكريات الناضلة اللزوجة التي تغرق جو الحجرة في رطوبة هذا الربيع الممطر • ويخال الي على مر الأيام والليالي أن الواقع صار أكثر رخاوة مما كان • فيما النسيج الداخلي ما كان قد تهلهل بعد بصفة تدعو الى القلق• والمطر ينهال على السطح • انه الوقع الوحيد الضارب على هذا الشرخ من الحياة الضيقة التي يسيطر عليها الصمت على غرار مدائن « التيبت » حيث يكمن الوجد هنا في تلك الخشخشة المبهمة التي تحدثها العروق المغبشة تحت البشرة • وما أن تنكسر أصوات الأشجار حتى أعلم أن الليل انقض علينا وجن جنونه • ويتثبت لي أن الساعة ــ ساعة يدي ــ تشير الى منتصف الليل • كل ليلة تفصلني عن الموت تبدو لي بمثابة منشفة اسفنجية ألقيت بغير مبالاة منذ بشائر الطفولة وطلائعها فنهشت الثواني والأوقات فلم أتنبه اليها وهي تترى أمام عيني • واذا بي أنتقل الى أجواء المراهقة ، الى أيام الحيض الأول ، الى يوم صفعة الأخ الأصغر لتجرئي على طرح سؤالي

البرىء • صفعة تلقيتها ولن أنساها رغم ما بذلت من جهود ومحاولات بدون ما جدوى • وتبعتهـا عزلة الليل • شرارات أليمة تخترق رأسي • فنون من الشواذات لم تفتني أهميتها • ذكريات ! ذكريات ! كلها ارهاق وثمرتها ارهاق بارهاق • ذكريات تنفجر على مستوى الصدغين بحركة سرمدية متواترة • ثم تنكسر فتضمحل • ولا تلبث أن تتورم وتتضاعف على وقع ايقاعات تهويسية جنونية • فلمعانات بريقيـة منخطفة بنفسجية ــ زرقاء ــ برتقالية • تتمطـط خطوط ذات الألـوان العـديدة التي لا تحصى • تتشابك وتلتوي بلا انقطاع فأكابر مجهزة على ارادتي وأواصل الكفاح في سبيل تحقيق ما قد قررته • وها هو ذا النعاس الآن يزيد في مشاكستي ويهددني • أبيت أن أنام • انني مؤرقة • واذا الأفكار تختلط اختلاطا وتلتف في رأسي التفاف كبة صوف خام اختلطت خيوطها • انها العزلة المطلقـة • والمطـر يتساقط ويتساقط • فعلي بمواصلة التمتمة والاحتذار من وقع حبات المطر المتناقطة • حذار من تغلب المطر علي • فيغلبني الحنين • أعباء تثقل كاهلي • يا له من شعور مفزع مقلق مذبذب • أشـكال أهلياجية رطبة تبلل عيني مثل قطنة مبللة مخضوضبة • ليلة ممطرة كحـلاء ! ضـوء المصباح يجعـل الأمواج

الكهرومغناطيسيـــة تتراكم عــلى الفــور ثم تنكسر متبعثرة على وجهي • فتتصادم في رأسي • حساسية باهتة • بقع وهالات • استشعاعات قمرية ــ بالرغم من المطر ــ تخرق التوتة فتتكسر على سطح الزجاج • رسوم مائية • حركة • اختلاجات • أزهار • زعانف • نعاس • غيبوبة • غفوة • ومن ثم : الأرق • دكنة الليل كثيفة كثافة غير مألوفة • أسجل انطباعاتي بغير منهجية معيقة • وأغرب ما في الأمر أنني لا أحس بالخوف • هناك في داخلي بعض البؤر المشوشة • فقط • وفي رئتي النهشتين تختمر الكلمات • حتى ما يجب فسخه ومحوه وتشطيبه وتهشيمه يختمر • انسجام بين الأخضر (التوتة) والداكن (الليــل) • سيرورة أخرى تنتفخ في عروقي تندفع عبر الزجاج • أحدس أن المدينة تنحدر من أعلى الهضاب مهرولة نحو البحر • مائلة • هناك ميناء ومقبرتان • وفي احدى المقبرتين يرقد أبي • وفي الأخرى جاث أخي البكر • ويمتحنني المطر • (سنام شجري • أترك الأوراق بضعة ثوان ريثما أتأمل) فصل الربيع هذه السنة رديء مميع • واذا بي أهدأ فأدرك أن السعادة تنحصر في الخربشة على الأوراق البيضاء ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى في القيام بما صممته منذ أشهر وأنا على أهبة الاستعداد لتنفيذه اذ آن الأوان

ولا مجال للمراوغة أكثر من ذلك • وفي هذه اللحظة بالضبط يترنح الواقع ويتهاطل المطر غزيرا • ومع الطوفان يحتد عنف التوتة الملتصقة بنافذة غرفتي • غزارة نباتية تقتحمني • سنام شجري • أترك أوراقي ثوان ريثما أتأمل في التـوتة وقـد راحت تعتصر وتتعصر • وتغدو الحديقة ــ عن حدس ــ مع هالات المصابيح والزجاج المقبش بالبخار ، كأنها لوحة خيالية فائقة الروعة • وتتنامى في رأسي آلاف النباتات شاقة خلاياى العصبية الى حد التفجر في هيـاج مذبذب مكثف وحالة تفسية معدنة • زعانف بشكل أزهار • وفي رأسي دبيب كأن هناك من يمشي • وكـأني بفأرتي الوديعة تجرش خلايا مخي باعتناء ودقة • على أنه استيهام بسيط لما في من توتر قاص • أصبح النسخ يرهقني • حلم قطني • استسلمت ببلاهة الى نعاس خفيف • واذ استفقت كان الصباح مشرقا • المطر توقف • راحت الشمس ترسم خطوطا متشابكة مبقعة على أرض الحجرة بألوان شتى ودوائر صفراء متشذرة تتراكب بعضها فوق بعض متقاطعة فتصور ــ في النهاية ــ أشكالا اهليلجية عريضة مجردة ذات فوائض وانكماشات متراكمة في فضاء الغرفة بتهيج نادر يجز في عيني • انتشار ــ أيضا ــ انتشار دوائر خالية من كل منطق • شبـكة مدوخة من حقـول

محتشدة ، مكثفة ، متراكبة ، متضاعفة ، عبر تلجلجات وألعاب وألاعيب المرايا ، وتنبسط على شكل منحن انحناء الأثاث . وها هي المدينة تبلعني : لا واقعية ، لا منهجية ، كأنها مطموسة . على أنها تمتد ولا تني تتسع عبر المشاغل والتشنجات . سوف يقتلها انتفاخها الشحمي . التمركز المديني : يا للآفة ! انها عبارة عن رشاش منبثق من المواد التي تكونها فتتكدس في ركام مدهش . معجزة من التوازن . ثم البحر الذي يقرضها . حلم قطني . هذا الاستطراد عن المدينة يذكرني بالمدن التي زارها أخي الأكبر قبل قتله . كتب الى أحد أصدقائه : « أمضيت الصيف كله في محاولة للعثور على جذوري . رحلت الى تونس فالقاهرة فدمشق فعودة عن طريق فاس . لم يعد هنالك ما أراه في بلادي ... الجحافل تجاوزت حدود الوحشية ... الأتراك أولا ، ومن ثم الفرنسيون ... كنت قد تعرفت على مسجد تلمسان في الفترة التي قضاها أحد زملائي في مسقط رأسه قبل سفره الى فرنسا لدراسة الطب ... خاب ظني أمام قباب المسجد ومحرابه ذاك الذي شيده عبد المؤمن ... واذاك قررت السفر الى تونس ، الا أن جامع الزيتونة لم يستطع أن يشفي غليلي اذ انني ظللت أتصوره واسعا وشديد الاتساع ، متناغما ،

مصقولا ، منحوتا ، كله حيوية ، مفروشا بعتاقة الألف عام وعام . لكنني قد وجدت فيه بعض ما يرضي نهمي وخيالي المحترق : أحسست بما يشبه هجوما يعمي الأبصار ويضغط بعنف علي بأنواره المنكسرة وقد تعددت عبر السنوات الضوئية وارتدت شرائح متحلية من الحضارات الجنوبية والشمالية على حد سواء . ثم القاهرة ، فالأزهر حيث توقفت كما فعل والدي قديما . شهادة قاطعة ، أخاذة ... لقد بني هذا الجامع في الحي الشعبي للسيدة زينب وخان الخليل . دفعات متنوعة للعديد من الدول خضعت للكتاب وحاولت أن تفكك الأهرام ، من فاطميين وشراكسة ومماليك وخديويين . وقد كانوا كلهم مناهضين لأي اضطراب ولذا فقد أقروا التقليد القاضي بقطع رؤوس أعدائهم في الباحة الواسعة التي أعيدت اليوم الى دنيا الرعاع لينهشها حزام التوسل والتسول . ثم كان دور مسجد بني أمية واني لأعتبره أجمل تحفة اسلامية أحاطتها الأسواق والأنوار حيث يقحم التاريخ انتصاراته ومواكبه الجنائزية جامعا فيها بذخه كله ، بطقوسه التي تبعث على التأثر لما فيها من تمازج الأشكال : الجامع الأموي مبني على أنقاض كنيسة بيزنطية لا تزال آثارها قائمة بفضل معماري عبقري تبرز الى الجانب الأيمن

من الساحة المبلطة بالرخام الشبيه بحجر الشب • وفي نهاية المطاف : مدينة فاس وجامع القرويين حيث يطغى عليه غبار الخشب المسحوق المتآكل على مر القرون بشكل طريزة ملصقة على كل الأبواب والأروقة وعلى عيون المياه والساحات التي يفرض فيها العميان قوانينهم بفضل مدائحهم المبقعة المحشرجة••» • تعبت من النسخ•والتحليل التركيبي لايزال يبهرني •ولا زال المطر شحيحا • وللمرة الألف تدور نفس المقولات في ذهني • مثل زأزة على شفرة موسى • عناصر الواقع المصبون ، أدركها بالارتداد الى الوراء : الى زمن الطفولة • انطباعات غامضة • التواءات على شكل وشم حلزوني المدار • الأذى • مساحات جليدية • انعطافات عائمة • روائح خميرية طازجة ومحمضة • نعيق حروف بكماء تتساقط في الجمجمة تساقط ثلج رخو • تنمل متماوج • حزوز • خطوط • شقوق • بقايا جمل مطبوعة مصبوغة بالزعفران • أضغاط أحلام مفتتة • ابتلاعات غثيانية• تجشوءات لعابية •تصلبات قلوية • تعقدات بنفسجية• انقاعات خمرية • كحول محمضة • تمرثات كحولية• تراكزات ملتفة • تراكبات متراكمة • تحززات مخروطية • وأصلا : تنعقد حول رأسي خيوط دبقة

تذكرني بالمخاط الذي يستعمله الحلزون لسد الحفر التي يعيش فيها وذلك بأناة ، صيفا كان أو شتاء . ولكم قضينا أنا وأخي الأصغر من أيام في مراقبة الحلازن وطقوسها ، أثناء الصيفيات الطويلة ، داخل البستان . ولقد لاحظت أن الحلازن تتناسل وقوفا . وتقضي في مثل هذه العملية الساعات الطوال . ولما كانت من فصيلة الخنثيات ، فهي تمارس العمليتين بآن واحد وبعملية واحدة . هلام . مطر . تعلمت أنا وأخي أن الحلازن تهيج أيضا اذا كان الطقس ممطرا. وهي حسيرة البصر وحادة الشم . لا شك أنها تجهل الاحتلام وهملان المني . وفعلا ، لديها تعويضات عجيبة . ليس في الكون كائن واحد حي يمكنه التلذذ مثلها . تذكرني هذه الخواطر حول تصرفات الحلازن الجنسية ، عشيقي الأول . البشر لا يتلذذون أكثر من ثانية واحدة . أما الحلازن فتلتذ أربع ساعات كاملة . بإطراء ... الفحولة البشرية (هذا ما لم يفهمه ذاك الشاب المغرور ...) اذا ماقارناها معها تبدو مذرية . كان صديقي معقدا كل التعقيد من هذه الناحية . كان يتظاهر بالفحولة والقدرة التناسلية . سخرت منه . لا تتعب نفسك يا رجل ! كان فخورا بمآثره الجنسية . حجمته فعدته الى حقيقته . أوقفته عند حدوده . انتابتني نوبة من

الضحك لما فهمت أنه كان يسعى جهده ليبرهن لي عن قدرته الوفيرة . فارتخى قضيبه وبقي هكذا كالعلم المنكوس . عرف كيف ينتقم لكنني كنت على استعداد . منذ اللحظة الأولى عرفته رديئا . الا انني كنت مفتقرة الى رجل لفض البكارة اللعينة . كانت عملية استهلاكية محضة . وكان هو الأداة : فقط ! صارحته في الأمر فرفضت عنجهيته من الاعتراف بواقعه الحزين . قال : المرأة الشريفة ... سبق وأن كتبت هذا ودونته في نيلياني . لكنني كنت على علم بأن الرجل منذ ذلك اليوم لحق به قرف من الرخويات وكل ما يشابهها . فازداد تعقده تعقيدا . ولم يفهم من الأمر شيئا . كيف يمكنه الاعتراف بأن امرأة سخرت منه واستعملته آلة ومجرد لعبة ؟ اللعبة عادة هي المرأة . انقلبت الآية . رغى وزبد وغضب . وقال قولته . صفق الباب وانصرف . تظاهر ببرودة الدم والاحتقار ولكنه بات مبهوتا . مصروعا . مصعوقا . من أين كان لي هذه الجرأة ؟ هذه النقمة ؟ عندما أعمل في العيادة أكرر هذا الكلام على النساء اللائي يأتين للمعالجة . الغلطة غلطتكن . وجاءت مرة احداهن . تناهز الأربعين . قالت فخورة : « أنجبت عشرين مرة يا دكتورة ... وكلهم أحياء يرزقون .» وقهقهت بصوت عال . اعترتني الحيرة . ارتبكت .

قلت : « أحياء عند ربهم يرزقون » • قالت : «بالضبط» • لم تفهم المسكينة انني أسخر منها • وفيما بعد ندمت على تصرفي معها مثل هذا التصرف• وما حيلتي وقد استولى الغضب علي يومها ؟ رفضت أن أفحصها • كانت سمينة • فخمة • طويلة • زغردت احدى الممرضات لها • فهمت أن الوقت لم يحن بعد • شعرت بعزلة رهيبة • كيف القضاء على هذا التخلف الذي ينخر العقليات ؟ بانت الشمس من بعيد • من هناك • من مكان حسبته شرقا • كانت باردة • قاحلة • شاحبة • أكثر مما يلزم • خاصة وأن التوتة لا تترك لها أي مجال للدخول وتغلق عليها الزاوية بكل ما فيها من فروع وأغصان • حدقت فيها ولزمت الصمت • خامرتني مرة أخرى فكرة الانتحار • تداركت الأمر بسبب أمي • أبعدت عني هذه البادرة • ظلت الشمس تتصاعد بتؤدة متجاوزة حد السطح • تتصاعد بدون حيوية • كأنها تحمل نفسها على الاستمرار • بتعنت • فبدا لي ذلك مريبا • ما زلت ممتلئة حنانا • وكأنني ما كبرت قط • فأبالغ في ممارسة العنف حتى لا تنزلق مني الأمور والأشياء والأشخاص • وكأن أصابعي هشة والناس مرايا • أخاف عليهم أن يتحطموا • وأبقى ثكلى • أو يتيمة هذا الدهر • هوس الانكسار •

منذ طفولتي كانت الأواني تفلت مني • الزجاجية منها خاصة • لوعة • رشف قهوة الصبــاح • خفت أن ينفلت الفنجان • تقوقع • تكوكب • تقزز • الهواء يميل الى الرطوبة • صباح الخير • كتومة أمي • قليلة الكلام والحركات أمي • صباح الخير • ولكن لا مطر • توقف المطر • آثرت لو أمطرت الدنيا • في المكتب الموجود في العيادة المتنوعة الاختصاصات تتناغم الأشياء حتى ينهمر المطر • أعشق مشاهــدة حبيبات الماء تتمطى أهلياجية ، خضراء ، زرقــاء ، تتحزز مساحة الزجاج حيث تتشابك عليه انعكاسات الــ • سبق ودونت هذه الانطبــاعات عن الطقس الممطر • جهود كبيرة أبذلها لعبور الفراغ الملتف هزءا حول كلماتي • قالت لي مرة احدى زميلاتي : « ما هي عقدتك ؟ » ولم أدر ما أجيبها • ألم يكن الصمت وسيلة تعبيرية هو أيضا ؟ لم أرد على أمي اذ راحت تصبح علي • وقفت • توجهت نحوها • قبلتها على جبينها • خرجت أمي من الغرفة • تجرعت لعقة من القهوة الحارة • انتعشت الى حد ما • توقفت عن الكتابة • تصفحت كراسي • عدت الى سنوات قليلة مضت • الى الوراء • قرأت : « كنت مبهورة بتأرجح نفسي بين اليقظة والنوم منذ الصباح الباكر وأنا نائمة ورأسي متكأ على الحائط • وقبل أن أحدس ، بنظرة

الى لوز الستار المسدل على نافذتي ، نوع فرضة النهار ، أعرف ما حالة الجو الخارجي من جـراء حركات الشارع الأولى تلك التي تصل الى بمطاطها وامتدادها الطري واهتزازها وسهامها المنطلقـة في الفضاء الفارغ المدوي ، منذرة بصباح فسيح الأرجاء، جليدي وخام • فأكون في الحقيقة بين نوم ونعاس ، بين غفوة ويقظة • وأعلم علم اليقين قبل أن أفتح النافذة فأنزل الى فناء الدار أحتسي قهوة الصباح ، أعرف اذن ما اذا كان النهار ممطرا أو صحـوا ، بمجرد استيحاء من أجراس الحافلات الـكهربائية الأولى تلك التي تمر بالقرب من المنزل بشكشكتها الحديدية وصرير سكتها التي تئـن تحت عجـلات مستديرة ضخمة • ولعـل هذه الأحاسـيس التي تقتحمني وأنا لا أزال في الفراش ، انما تتداخل في شبكة النوم وتنزلق من خلالها فتطبعني بطابع الحزن اذا كان الجو غائما وبلون الفرحة اذا ما كان الجو صافيا • وكثيرا ما كنت أقبـع في بيتي أياما لا أعرف للدنيا وجودا ولا للحياة مذاقا ، الا من خلال النافذة المغلقة والشبابيك الحديدية المزخرفة المتواجدة ورائي والتي تغربل الضوء والصوت والـرائحة ، وكأنها مصفاة دقيقة لا تأتيني الا بما في الأمور من صحة واقعية • واذا ما استفقت وصادفت يقظتي

مرور الحافلة الكهربائية ، أذكر ــ للحــال ــ تلك الصباحات الرائعة التي كان يصطحبني فيها أخي الأكبر الى دار الحضانة خاصة في الأيام الأولى التي كــان يحملني فيها وسلتي الصغيرة على كتفيه ، فيجري واياي لاهثا من فرط ما يتعب فأموت غبطة وفرحة ، فأضغط بيدي على صدغيه وتنتفخ شرايين رأسه ، فأخشى أن يقضي فأسأله : وهل ستموت ؟ فيجيبني أن نعم • واذا بالخوف يستولي علي فأهم بالنزول عن كتفه حتى لا يقال عني انني تسببت موته • وما كنت لأعرف آنذاك ما لكلمة «الموت» من معنى لكنني اعتدت سماعها على فم الكبار ، يتلقظونها بشيء من الوقار والحزن والجدية وربما ــ أيضا ــ بشيء من الخشوع • » ترشفت جرعة أخرى من فنجان القهوة • وبعدها أغلقت الكراس • جمعت الأوراق المبعثرة على المكتب وهممت بالتهيؤ للذهــاب الى العمل •

الليلة الثالثة

اعتنفت • كان الليل ثقيلا • وبعد المطـر هبت الرياح الجنوبية الفاترة • اللبقـة • الزاخمـة • المشحمة • تقطع النفس • قطعت نفسي • وفي غبش الصبح رأيتهم ـ وذلـك في اليـوم الأول حيث بدأت احتـراف اختصـاصي في أمراض الجهـاز التناسلي • كان اليوم نهار شتاء قارص • رأيتهـم اذن ـ جثما • كئوبا • بؤسا • فركت صدري حرقة وتعجبا • وبدون أن أرخي زمم شفتي فكرت : لو انني أراهم حقا ••• لكنهم أشباح هم • مبهوتون • مصعوقون • مبهورون • يترقبون بصمت مهيب • يقفون صفا مرصوصا مرصصا متراصا • متحجرا • ومن كل نواحي القطر قد جاؤوا بأسـمال الفقـر على أبدانهم • تفوح منهم رائحة الفقر والخـوف والخنوع بنتانتها البذيئة • رأيتهم جاثمـين وكـأن الصاعقة انقضت عليهم من عل • من أعالي السموات وقد ملأوها تطايرا وملامح لامرئية ونفاقا • لقد بهتوا بهتانا • لم يكونوا على علم بأن الطبيبة امرأة • أنثى•

وكالسمك الظمآن راحوا يطلبون غطط الماء • حسنوا نواحيهم • أزالوا شيشانهم • كشطوا أدمغتهم • وهنا أمسكت بهم • في قبضتي وفي حوزتي أصبحوا • لقد جاؤوا من بعيد • من الصحراء • من الجبال • من المدن الهزيلة ، المرصعة قصديرا وورقا مقوى وحبالا مقطرنة • ما أبقى والو حتى الطبة ولاوانساء ••• ربحت يمى • لكن : لم يكن لديهم أي اختيار • قيل لهم أن هذه الطبيبة هو خير من اختص في هذا المرض • لم ينتبهوا أول الأمر • وها هم واقفون مصعوقون : أنثى • والطبيب امرأة شابة ذات الوجه المبهرج • تلبس سروالا كالرجال • كانت الدنيا محمرة من شدة البرد • أما وجوههم فمقفهرة من طول السفر ومفجعة من هول الفجأة التي انقضت عليهم انقضاض الصاعقة • وراح حائط العيادة الأملح يشتعل بسن الحر المنبثق من أحشائهم المسعورة • المتعفنة • بلهب التنور المتأجج اللاذع فانصلقت كلماتهم • كان الليل ثقيلا • ولكثرة الزحم والازدحام كانوا يتوافدون قبل الفجر•واذابي أتاهض الزمن • ترشقت وتأنثت أكثر مما يلزم • حملت الدنيا ووضعتها بين أردافي • واذا غريزتهم التناسلية تشتعل وريقهم في أفواههم الصائمة يشح • أشعلت سيجارة عمدا • أشعلتها عند مدخل العيادة•

لتلقينهم درسا • لا بد لهم من أن يفرزوا أفكارهم ويتخلصوا من مسبقاتهم • لقد أصبحوا أسرى • في حوزتي • نعم امرأة يا خالي ! أنثى • شبقة • مشققة • شقاقة • انهم أسرى يدي • جبهاتهم بين يدي • فأدركوا للحال أن لا منفذ لهم لا مهرب لا مفر من حبائلي • لعنة الله على هذا الاحتقار • فما النساء في نظرهم سوى بقرات ؟ لعنة الله على هذا الرابط الجهنمي الذي يربطني بكل هذه الموبوقات والرواسب • أموركم بين يدي أيها السادة • وساد الصمت • ولم يسمع صوت ما عدا هذا السعال الأحمر اللزق • لقد أكدت الممرضة أن هذا الطبيب هو أكبر اختصاصي في بلادنا • أليس في ذلك شيء من السفاهة ؟ لقد ولى زمن الحلول الوسطى • لم أعد أتذوب كالحرير المنبثق من بشرتي • مثل المرة الأولى ••• واذا بي أذكر • أتذكر ذلك الوبش • لقد أطلقت في البداية العنان لأنوثتي تلقائيا • فامتدت يده الطويلة المشعرة نحو أقاصي • حبس أصابع الخفين • الربلتين • الوجه الأسفل لفخذي • وصعد نحو الشعر • راحت أصابعه الملهوفة تتلمس شعر الفرج الخش • القطني • الجعد • عبث بالزرع قليلا • زرع وفرع • ثم تبطن • تظاهر • تمظهر • تصدر • تقمم (تقمقم؟) تفحل • تصهل •

تحمحم . مسح المساحة من أقصاها الى أدناها . تبختر . انتفش . تكرش . تصدر . عاد متشنجا وعدائيا . ممتلئا حقدا وغطرسة . عيناه ممتلئتان قذارة وزهوا ونكلة . قلت في نفسي : انها زلتي الأولى . تذكرت الحلازن في الحديقة وما قرأته عن طاقاتهم الجنسية الهائلة . احتقرت هذا . أوقفته عند حده . مهلا سعاد . اغراق في الضحك . قلت بالت (بانت) سعاد / فقلبي اليوم مبلول (متبول) . لم يأتني الماء الخاثر . فصار هو كالمعتوه فاغرا فمه . لا يفهم شيئا . رجولته ملأت فمه وصدره . فتقززت منه . لوثت المنديل بدم البكارة . محت البلباة قوتها وهو يطرح نفسه . يعرضها علي . بات مسمرا في مكانه مبهوتا . مبهورا . غضبضبا . وابتعدت عنه . الحلزون . الحلزون أفحل منك يا صاحبي ! أربع ساعات يقضيها الحلزون في التجانس . أما أنت . بهت ذاك الذي انفرز . انسلخت منه . ففهم كل شيء . لقد انفش قضيبه وانتكس . وصار رخوا. خرج هاربا كالمجنون . صفق الباب . بقيت لوحدي . وبدا الليل صامتا . ساكنا . ساكتا . حطمت عجرفة الذكر المتذكر . على سطح المساء ارتسمت مويجات سعال صغيرة . تقيأت في المغسل . تناثر البصاق ذا اللون الأحمر . الملوث بالحمرة . تصاعد أنين .

هأنذا أفيق من سباتي • مجروحة • متذمرة • تلفظ عند صفق الباب كلاما بليدا • ذبحني القحيح • غامرني السعال • تلته الفرحة • فالارتياح • وكأن في رحمي قمل يدبدب ••• قمل • انهم هكذا المرضى • كانوا مزعوجين ولكن جبنهم حال دون هروبهم • اعتنفت • كان الليل ثقيلا • بعد المطر هبت الرياح الجنوبية الفاترة • في غبش الصبح رأيتهم • تفرست فيهم • واقفون صفا واحدا • واحدا ، واحدا • رأيتهم يحملقون في وجهي المبهرج بمساحيق الزينة • المطلي • هذا غير ممكن • مش معقول • هاذ الحية طبيبة ؟ لقد أكدت المرضة أنه لا أمهر منها في البلاد قط • ما تخافوش • ذرك تشوفوا • امرأة باهية • مكثوا في أماكنهم • ولما استقبلت أولهم لم يجرؤ هذا على النظر الي • حدقت فيه مليا • قلت انزع سروالك عنك • هاله الهلع • نظر الى الباب • تلعثم • فانصاع لأوامري • ورحت أتفحصه • كانت موثته مضخمة • قلت له كم من الأولاد أنجبت يا عمي ؟ تلعثم فتلاطش • يجب استئصالها • بعد أسبوع سأقوم بالعملية الجراحية • حالتك خطيرة • واذا الهلع فيه يستأصل • وابتسمت المرضة • تغامزنا • ودخل الثاني • فالثالث حتى انقضى النهار • وقفت الى

المغسل . صوبنت يدي . أطلت الغسل . بتأن وبتؤدة . نظرت الى وجهي في المرآة . بدا لي شاحبا . كل هذه التلمسات القذرة . لكن ما العمل ؟ واذا وأنا على هذه الحال تغمرني ارتسامات وانطباعات تدور حول اليوم الذي تمت فيه جنازة أخي البكر . كنت أنظر الى أخي الأصغر يتمرغ على عشب البستان . تحت التوتة التي تضاعف منذ ذلك الحين تضخمها فانحنت أغصانها . كان أخي يلعق دما ينزف من ركبته المجروحة ويلعب بقضيبه الصغير المنتفخ الى حد ما . وكنت أنظر الى الشجرة التي كانت تتثاقل تحت حركات احدى بنات عمي . كانت تتسلقها مؤكدة أنها تشاهد كل ما يدور في الدار . وكعادتها كانت تكذب . وجاءت حينئذ العمة فاطمة تحمل لنا بعض المأكولات والحلويات في طبق من نحاس . ولكم كانت العجوز تحبني . وقد كانت تشرف هي على شؤون المنزل . كانت نصف شغالة ونصف فرد من أفراد العائلة . كنا نهابها لشدة حرصها على النظافة . لم أتوقف عن صوبنة يدي والمرضة من ورائي تحمل بين يديها منشفة ناصعة البياض أجفف بها أناملي عند انتهائي من عملية الفرك والحك وقد دامت دقائق طويلة . كانت عمتي العجوز (فاطمة) حريصة على النظافة كل

الحرص • وعلى الغسيل • ولا تطيــق أن يتلطخ الغسيل قط • ولا تطيق أن يلطــخ أحــدنا أرض المنزل بحذائه اذا ما هطل المطر خاصة واذا لم يهطل عامة • لشد ما كانت منهوسة • دوامة الأيام وناعورة الفصول • أما التوتة فما كانت تفقد أوراقهــا في فصل الشتاء ولا يلحق الجليد بها مضرة • واذا بأخي يهوى من أعلى الشجرة أرضا فراح الدم من ركبته اليسرى ينزف • وأخذ يبكي المسكين وشرع يمتص الدم مازجا اياه بالدموع والريق • وابنة عمي هائمة في تصاعدها وهبوطها من قمة الشجرة الى أسفلها • حتى اذا راحت تتسلق ، غابت عن الأنظــار شيئــا فشيئا وكأن التوتة قد ابتلعتها لقمة لقمة • هــذا ظهرها يختفي • وهذه مؤخرتها التي يغطيها قطــن السروال الملطخ تختفي • ثم الفخذان • ثم الساقان • فالأرجل • فالأقدام • ومن بعد : القدم • وكأنها ذابت وانصهرت • وكان قرع الأواني يأتي الينا من المطبخ ممزوجا بروائح الكسكسي وهو يفور في الكسكاس ، وأصوات غوغائية لا يمــكن تحديد مصدرها بالضبط • نغمات القرآن تدندن ممزوجة بوتيرة الذكر • وأخي الأصغر يتمرغ • وابنة عمي تحاول استلفات انتباهنا • والعجوز فاطمة حريصة على عدم السماح لنا بدخول الدار خاصة اذا ما لصق

الوحل بالنعل • وهي وراءنا تعدو ولا ترحم أحدا • وفي الحقيقة كنا نهابها • ليس نحن فقط بل أبي وأمي أيضا • عمتي فاطمة تكره الأوساخ ويمقطها هلواس النظافة • هي لا تخاف أحدا • لا تخاف الا السلحفاة • فهي تغذيها سرا لحما غلمانيا وكان الحيوان من كثرة ما يدلل يأبى الاستقرار في الحديقة ،فاعتاد على العيش الرغيد • وكانت الفكرونة تخيط الفضاء جيئة وذهابا داخل الغرفة حيث فيها يتراكم الأثاث • تدور دورانها • وفجأة يتوقف الماء في الحنفية فأبقى وعلى أصابعي رغوة الصابون المكشكشة المزبدة • فتغرق المرضة بالضحك • أقلدها • فنغرق كلتانا في الضحك • ان مثل هذا الانقطاع كثير الحدوث • تدور (السلحفاة) دورانها المستميت والعجوز من ورائها تلهث تتنفس الهواء مسرعة وكأنها تحتسيه بأنفها • تنظف العمة فاطمة الأرض فتحكها وتدلكها بفرشاة حديدية مشبعة بالصابون والعقاقير المجلفة الصاقلة المطهرة • لا تترك للجراثيم ولا للحشرات حظا لها للتزايد حتى اذا ما اصطدمت عن غير قصد بالسلحفاة استغفرت وراحت تكفر فتصوم من بعده أسبوعا كاملا مدعية أن لهذا الحيوان البشع المتباطي القدرة على سحبنا معه الى الفردوس ، خاصة اذا عرفنا كيف

نحسن التعامل معه ونرفق به . فكنا نذكرهما معا (السلحفاة المدللة والعجوز الشمطاء) على أننا لم نكن لنعلم ما اذا كان هذا الحيوان ذكرا أم أنثى . واذا ما ضربنا السلحفاة راحت الخادمة تهددنا فتجري وراءنا في دوامــة الغرف المتداخلــة بعضها ببعض والمقصورات المتشابكة ودروب البستــان الملتــوية المتعجرفة . فلا حاجز يوقفها ولا عائق يعيقهــا . وتضع الشمس الأشياء كلها واحدا الى جانب الآخر فتقلدها الظــلال والأشباح والخيــالات وتشكــل بدورها نسيجا نشا مبقعا . ظل يساميه ظل . وأمسح يدي مستغنية عن الماء فيما راحت الحنفية تغرغر وكأني بها تلفظ حشرجتها الأخــيرة . وتضحــك المرضة . ظل يساميه شبح وخيال يساميــه تبقع ضوئي أو لطخة قمرية ساعة تنهــار الشمس في الغروب . ولكن لكل شيء ليمه . فحصت اليوم أكثر من ثلاثين مريضا . وأحس بالتعب ينهكني . أشعر بالارهاق . لكل شيء ليمه . شرائح السياج الخشبية المزركشــة اخضرارا واحمــرارا . أدراج السلالم المتصاعدة نحو العدم أم نحو الفناء ؟ قشور الأشجار اللينة منها والحــرشاء متدليــة عجراء . الكراسي المصنوعة من الحلفاء المخططة وذات هندسة خاصة . هناك اللباس المكوم أكواما أكواما . وهناك

الستائر المخرمة . والمخامـل المطـرزة . والزرابي المنحولة المخملية . والحنابل المنحولة النسيـجية . والأسمطة المرقطة بالخيوط القزحية . وما كان عائق ليعيق العمة . أخي يبكي تحت شجرة التوت ودمه ينزف خثيرا من ركبته فيشكل خيطا سيلانيا رهيفا . وابنة عمي قابعة داخل التوتة . والمآتم يستمـر . والصابون ـ أو بالأحرى الرغوة ـ تجف عـلى بشرة اليدين فتكون قشرة رهيفة رمادية اللون . والمرضة ترفع حاجبها الأيمن معبرة عن عيـائها . ليس هنالك ماء . تسكر الحنفية . تهفت قرقرتها . تكاثر الهم يضحك . نظرت الى وجهي مرة أخرى في المرآة . رأيته قد زاد شحوبا . قررت الانصراف. ماتت الشمس . باقي المرضى الذين لم يساعدهـم الحظ على الدخول ربضوا أرضا . أشفقت عليهم . تقرفسوا . تفلوا بين أرجلهم . وبقوا صامدين . صالدين . متعنتين . حدقت في الليل الداكن . لا قمر . لا نجوم . أتدارك ما سيأتي . انطلقت في الشارع الكبير أزاحم الكائنات . من هنا دفعة ومن هنا مراوغة ومن هنا افلات . وصلت الى محطـة الحافلات . مرت الأولى فكانت مكتظة بالركاب فلم تتوقف . مرت سيارة أجرة فارغة . أشرت بابهامي الى ناحية الشمال . أشار السائق الى ناحية الجنوب.

ازداد سرعة • مرت حافلة أخرى • توقفت ولم يفتح الا الباب الخلفي • نزل منها نفر قليل • لم يفتح باب الصعود ، الأمامي • كان قبالة المحطة مقهى غصت بالزبائن • كان أغلبهم أمام الباب • يحملقون في النساء وقد أثقلتهم الشهوة الجارفة • قررت العودة راجلة • تبعني مراهق نباح ، لباح ، وكأنه يقول أريد أن أشبع من اللحم الحي • لم أذق طعمه • ضحكت في وجهه بشراسة وبكيت في الداخل بعصبية • وصلت الى المنزل • امتلأ جسمي نعاسا • هويت غافية محتضنة نهدي • وما هي الا ساعة حتى استيقظت • أحسست أن بي لطم تنز شهوة ووجعا وشهيقا ••• التفت باتجاه النافذة • ها هو ذا العالم يتجلى أبيض حارا • مشقوقا • يتصدع كسبخ الصحراء في القيظ • جاء الصمت • هف الشارع • توقفت حركة السيارات • جاء الصمت من جديد • الصمت الداخلي • صمت آخر • أبكم• أطرش • والنوتة كالأفعى تزحف نحو الفراش من خلال النافذة المفتوحة • استدارت بعض الشيء عند هبوب الرياح الأولى • فكرت • لم أقل شيئا منذ دهر • فقدت التعجب • نسيت حب الاستطلاع • أهملت غريزة الذكاء • مقتها • تغافلت عن المتعة • فقدت عضوي • بدني • ويا لها من أمور في منتهى

التعقد • سكتت روحي • كانت المسافة تتماسف • أدركت أن هناك خللا • جاءني النوم من جديد • نمت طويلا • وفجأة رن الهاتف كالزوبعة • وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحا • صوت عشيقي الأول على الخط • كان سكرانا • سمعته يتكلم • يثرثر أشياء وأشياء ثم أخذ يتكلم عن الحلزون • قال بصوت مرتبك : « قرأت كتابا عن الحلزون • كتاب علمي بالطبع • اسمعي • السفاد عند الحلزون متبادل • ان هذا الحيوان المزود بجهاز تناسلي خنثوي يثير شريكه بغرز ابرته في جلده • ويثار من ناحيته بنفس الطريقة • وما أن تبلغ الاثارة ذروتها حتى تنكسر الابرة وتخرج من الناحية التناسلية بمساعدة مخاط الخطط ذات الخيوط المتعددة • وعندها ينتصب الذكر ويولج في فرج الحلزون الثاني الذي يقوم بنفس العملية • سفاد يحدث وقوفا ويمكنه الاستمرار ساعات عديدة مما يسمح للحلزون بالتلذذ تلذذا مضاعفا • » سكت برهة منتظرا مني ردة فعل • لم أفه بكلمة • وبعد صمت طويل أردف قائلا : «لماذا قارنتيني بالحلزون ؟ أنا لست خنثويا • أنا لست • • •»وقطعت المكالمة دون أن أنبس بحرف واحد•

أغلقت السكة • علقت السماعة • كنت مسرورة • فبعد أعوام ما زال الرجل منفعلا • مسكين • زدته عقدة على عقدات • لقد راح هذا ضحية الحلازون • مسكين • بقيت يقظة • ترتفع تكتكة الفياقة الضخمة القديمة عهدا وصنعا • تركت هذه المكالمة المفاجئة في مذاقا مرا • نوع من الفزع والضجر تملكني • لن أفهم شيئا قط عن الرجال • لقد زعزع هذا الشقي كياني الذي استغرق بناؤه سنوات • ورحت أتثبت من الأشياء المحيطة بي • فجوة قديمة انفتحت في أحشائي • الليل — أو على الأقل ما تبقى منه — متلاش • حركات غير مجدية • مداورة الكلمات بما يلزم من حذر قبل القائها جانبا • مناجاة كارثية • أعصاب تتآكلها كثافة الجو • وهذا السكران الذي يهذي مدعيا أنه ليس بخنثاء • موجة قلق تتمدد وتتمطى كقطرة زئبق تنفرق أهليلجيا بفضل قوتها الداخلية • اخلاء السبيل للانفعالات • قبل أن تستيقظ أمي • وقبل الذهاب الى العيادة • تحاصرني تراكزية المزلاج كفوقعة الحلزون • كلمات غزيرة وشتائم فحشاء ترصدني • وهذا الشغل في العيادة والذي لا بد لي من الاستمرار فيه • خطوط • فواهات • بركين • شطوب • وتتلولب الكلمات حول محور الذاكرة • ميوعة برتقالية تشطرني انشطاريا •

انشطار رخو وآخر صلب • وتتراكـم في دماغي خميرة الكلمات المكسرة ، المفسخـة ، المشطبة ، الممنوعة ، المحرمة ، المنحلة مفاصلها ومفاهيمها وكأن قلبي راح يتضخـم ويختمـر تحت تأثير أمـرات بنفسجية • انطباعات مضمـرة • حصر مضـر • حلزونيات ولولبيات • **أقع في الشرك** • هذه المكالمة أزعجتني • نسيت مساميه • وها هو ينبثـق من العدم بصوته المخدر بما اجترع من كحول في احدى الحانات الرديئة • أفقد المحور • ومع المحـور ، حسي في الارتكاز والاتجاه • الباطن يرخم • يطغى الصديد ويزحف القلح على رئتي • والرئتان ورق مقوى وردي اللون • أشعلت كل المصابيح • داهمني الخوف الطفولي والكابوس الذي لا يقدر المنطـق على الغائه • الأضواء ليست قادرة على الحد من هذا الاحساس أو ذاك نظرا لتعدد منـابع الاثارة ومراكزها المنقسمة الى آلاف الأجـزاء المنصهـرة والدائرة في الهواء المتعفن رطوبة • أقراص مصفرة تتصادم وتتطاير من الدماغ عبر مواشير وانعراجات مرهقة • أحاسيس تجرجر معها كلمـات محفـورة بالازميل داخل منطقة اللاوعي • أطفأت كل المصابيح وقبعت في العتمة طويلا • نوع من الانكسار يحدث

في الداخل من جراء هذا المزيج وهذا الخليط وهذا التشابك والتداخل والتكويم والتراكم • هناك اختلاف مع نفسي الظاهرة وهي الوحيدة التي أعيها بغموض بل أعيها ضمنيا وأنا عالمة أن سر غرابة المحيط الذي أصبحت ضحيته انما هو كامن في هذا التشابك الشيطاني بين الأشياء والأدوات والأشخاص الخاضعين كلهم الى قانون اتحاد لم أتوصل الى حل ما فيه من رموز وان كنت أحدسه كما لو كان مخطوطا ومرسوما بشكل نهائي في تلك الأوشام التي شرعت منذ أن سمعت صوت هذا الرجل تشق طريقا في ذهني : انها الخطوط التي تشكل تصميم المكان الذي أعيش فيه منذ ولادتي • الأسلاك الجوفية التي تربط بين مختلف آلات الهاتف • السكك التي تنحرف الى ما لا نهاية أثناء الكوابيس • الآثار الداخلية التي تدمي القلب • الممرات المصيرية التي يتداخل بعضها ببعض بدون ما جدوى • الكدمات اللامرئية التي تنتفخ تحت خميرة الحرارة • الدوائر الزمنية التي تنفجر ألف قطعة وقطعة • الفراغات الوحدانية • الهندسات المشققة ••• كل هذا القدر الخارق الموجز لكل حياة والذي لا أفهم منه لا بدايته ولا نهايته والذي كنت (أحيانا)

أحدسه ـ بعض الشيء ـ بليونة كما في حلم ندى ، متوبر ، متزغب لا يتوانى عن تعـذيبي وتخـويفي وافزاعي افزاعا رهيبا (خاصة الكلمات الهاتفية) اذ أخشى ألا أجد القوة الكافية للقضاء عليها ، فيستحيل علي استرجاع سكينتي وسيرورتي كما لا أقدر على أن أغادر دائرة المصائب . كانت غـرفتي تحتفـظ ببرودتها رغم حرارة الصيف . فـدوي الحافـلات الكهربائية التي تمر في أسفل المنزل . بقعتان من الظل (في النهار) على قمـاش الستـار المتدلي والمصنوع من التل الأبيض . وعلى الأرض فيض من الألوان المتداخلة (من الأخضر الى الأحمر) . لم تتغير هذه الغرفة منذ أن كنت طفلة صغيرة . نفس البلاط . نفس الأثاث . نفس المنبه الضخم العتيق . نفس التيار الليلي . كانت الألوان تحـزز الجليز تحزيزا عريقا . الأصـوات تصدع الجـو تصديعا . دوي الشارع يقتحم الدار منجمـا . صيحات الباعة . ترنيمـات شـحاذ السكاكين . جعجعة حي آتيـة من بعيـد . نعـاس بين الآونة والأخرى . ورائحة العيادة الملحة والتي تتبعني الى هنا . تشبع ملابسي . وللتعب هو أيضا رائحتـه المميزة . تتصاعد من كل أعضاء جسمي . بعـد

عشر ساعات من العمل والفحص • ثم هذه المكالمة المسعورة عن طريق الهاتف • أنظر الى الآلة وكأنها امرأة منحوتة على الطريقة التكعيبية والمنطوية على نفسها • متقوقعة • كان الشارع في صغري محظرا علي • فلم أكن أغادر النافذة • اهتزازات بلور النوافذ اهتزازا خفيفا عند مرور أي شيء من سيارة صغيرة أو آلة ضخمة • ورغم كل هذه السنوات التي مرت منذ عهد الطفولة لم يتغير الشارع ولا الحي • القباب تلو القباب • الى أبعد ما يمد البصر • الهياكل • الغرابيل • السطوح • زرقاء • حمراء • برشاء • صلصالية • غمراء • الصرصرة • الاختلاجات ••• زرز ••• زرز ••• انه طنين اليعاسيب ؟ أهو الصيف أم الشتاء ؟ من يدري ؟ الدكاكين المبرقشة المزخرفة المبهرجة • تبعا للمناسبات والأعياد • كانت الحركة تبدو لي — وأنا طفلة صغيرة — وأنا أنظر من عل ، شديدة السخافة والغرابة • الباعة المتجولون يتحاشون الوقوع في قبضة الشرطة • لحاف أبيض (مجرد ايحاء ومجرد وميض •••) يخترق من حين الى آخر تلك الكتلة التي تشكلها (لا شكل لها في الحقيقة) الجمهرة المتراصة • عينان سوداوان كحلهما الكحل ذاتا حول طفيف (قذى بعينك أم بالعين عوار ••• هكذا قالت الخنساء) • ان الرجال

يلقون نظرة طفينة على هذا الطيف وتزور له أنظارهم في حدود البهتان والنفاق والتفـاني في مراوغـة المحرمات الدينية مثل الزنى والسكر والميسر • كان كل شيء شفافا • ويمر الوقت • لا شيء أشد كآبة من قضاء آخر النهار وأنا مطلة على النافذة وقت سقوط الأصيل الصيفي المتباطيء • الأسـواق • الشوارع الواسعة • الأنهج الضيقة • كان أخي البكر يصطحبني أثناء شهر رمضان خفية • أذكر ذلك بوضوح وبهجة ، وبلوريه شفافية • ثم تأتي الدروب المظلمة التي كان علينا اختراقها قبل الوصـول الى الساحة الكبرى وقد تحولت لمدة شهر كامـل الى ملهى عملاق • كنا ننظر فنرى الأكـواخ الخشبية المتلاصقة و « اليانصيبات » المجعولة للسـذج من البشر والحفلات الشعبية ومحلات الرماية بالبنادق • والنساء نصف العاريات يستدعين المتفرجين للتفرج على المشاهد المعروضة في الداخل • فنسمع الموسيقى والضوضاء ونرى الأقزام البهلوانيين (الا أننا كنا نخشى السحرة) والمقاهي الفائضة على الطرقات التي استحوذ عليها الراجلون والغبـار والحـرارة والماء المجعول للايهام وباعة المرطبات والفطـائر المعقـدة الأشكال • الكروم وخشبات المسارح • دور رقصة البطن (تحية كريوكة ٢٠٠ سامية جمال ٢٠٠٠ لكنها

مجرد أسماء مستعارة ؛ حيث تحتشد الخلائق لالقاء نظرة شهوانية على سرة بعيدة القعر في بطن راقصة سدتها بدرة مزيفة ، ولكنها براقة ! ونرى النشالين يترصدون فرائسهم • ونسمع الأغاني القديمة تجتر اجترارا مصدرها بلاد مصر أو غيرها من البلدان • هنا البضائع المعروضة على اختلاف أنواعها وبائعات مساحيق تلميع الأسنان ومساحيق قتـل الجرذان • وهنا المشعوذون والعرافون الملحفون بالحرائر ذات الألوان المتلألئة والجالسون القرفصاء عـلى الأرض مباشرة يتكهنون ويكشفون عن الغيب لغيرهم من الناس فيقرأون على الرمل مستقبل الآخرين كما لو انقطع رجاؤهم من مستقبلهـم الخـاص • وهنـا الازدحام والنساء الخرفاوات اللواتي يخترقن الفضاء مخفورات رافضات لكل مراودة أو اغراء وهن يبعثن في نفوسنا الاشمئزاز والتقزز • وهناك الاحتفالات الشعبية • لقد كنا نتسلل بلا تذاكر الى تلك الأكواخ الصغيرة التي كانوا يعرضون فيها الأفلام الصامتـة فنشاهد « شارلو » الخارق للعادة ، ولا نصـدق ما نراه من حركات بهلوانية فتغمرنا السعادة وقـد نجمت على الأخص عن دخولنا بدون دفع الثمن • وكنا نصفر تصفيرا حينما كان يحـاول ذلك الرجل السـاذج تقبيل احدى معشوقاته البدينـات ونصرخ

محتجين مستزيدين لنما انتهت حصة العرض التي كانت تدوم نصف ساعة ، فكانوا يضطـرون الى طردنا ومطاردتنا بالعصا • ولكننا كنا نعود فندخل من جديد بدفعنا هذه المرة الثمن • ندفعه من النقود التي استلبناها من النساء أو طلبناها من الفلاحين السذج الذين لم يكونوا كرماء أصلا ! انما تجاوزتهم الأحداث وذهلوا لما كنا نروي عليهم من خرافات غير معقولة • ونادرا ما كنا نتمكن من الانسـلال الى حفلات الموسيقى الشرقية فتصـرخ صرخة الوجـد والغرام كلما رفعت احدى الراقصـات السمينـات الشمطاوات فستانها الى فوق فتتركنا حالمين ضائعين تائهين في التخمين في مسألة الجنس وبخصوص فرجها الذي كاد يكون مكورا كالبطن والذي كنا نجهـل وظيفتـه الجنـونية ومعجـزاته الجهنمية • بيـد أننـا كنـا في الخـارج نخشى عـلى كـل حال المتسـولـين اذ كـانوا يجـدون في مطـاردتنـا بسبب منافستنا لهم في مهنتهم لدى الأجانب الوافدين الى المدينة • وهنـاك باعة الياسميـن المشوقـين الخاطفين اللاواقعيين • وهناك باعة الشـاي سودا مثل الابنوس الحالك المعسولي العبارات والمتحوفي الاشارات والراقصي الحركات • وهناك باعة البخور والدوار والقلق أيضا • لقد كانوا (الحثالاء) في غرابة

أطوارهم يتذكرون سحر المدينة ونزواتها . تلك المدينة التي تغير ايقاع الحياة فيها فرجعت اليها هيئة شيطانية حبست نفسها في اطارها طيلة شهر كامل ، متنكرة لمن عرفوها على هيئة مغايرة ، نابذة من لا يجرأون على حصارها وكانوا على اختلاف أنواع حالاتهم ومنزلاتهم يذكرون تلك الاحتفالات الليلية التي لا يمكن أي زنديق أن يتصورها ولو في المنام . لقد كانوا يعرفون أشياء كثيرة فيرهقوننا برغبتهم في اقامة البرهان لنا في منعرج زقاق أظلم أو في قلب الساحة العامة عن أن متعتنا ليست بمتعة حقيقية وأننا في الواقع لا نفعل شيئا سوى محاولة سد أدبار الذباب الذي لا يحصى والذي كان يجرح الليل الثاخن بطيرانه المختلج اختلاجا لوليا . لقد كانوا يهزون أكتافهم انكارا ويبصقون على الأرض ويتمخطون بين أصابعهم ويلوحون في رياء بابهاماتهم التي كانت سلامياتها الأولى ملطخة بالحناء ثم كانوا يختفون . فنلحق بهم ونتظاهر بالتعلق والاهتمام بحقدهم وبغضهم ، طامعين في أكياس نقودهم فكانوا يفتحونها أمامنا بهيئة أقرب الى الحتمية منها الى التمثيل المسرحي . فكنا نلتقط الدراهم التي كانت تسقط من أكياسهم وننصرف منشرحي الصدر ، مسرورين . أما هم فكانو يستمرون في هز أكتافهم

وتوبيخنا وتعنيفنا ، ملوحين ، متخللين الجموع اللاهثة بجوار المواخير . انهم لم ينسوا يقينا التخريب والدمار اللذين سببهما الاستعماريون فلم يكن هذيانهم مبالغا فيه عمدا البتة ، بل ربما كان مكيفا تكييفا ما ، فحسب . ولكن لا أحد كان يستمع اليهم لأن تهديدهم كان ينذر وخيم العواقب . ذلك أن الشعب كان محاصرا بمقتضيات الحياة اليومية الملحة في الطلب . وكنا ننصرف فنستعمل دراهم العرافين والمتسولين والقوادين ، وقد تحولوا الى مردة مزبدين مرغين ، لمشاهدة السحرة ، فنترك في الخارج المبشرين وقد جن جنونهم لاحتقارهم المشعوذين احتقارا لا يرضون معه على دفع ثمن مكانهم والالتحاق بنا في ظلمة القاعة واغتيالنا في متسع من الوقت وذلك لأن الضوضاء على الركح كان يبلغ من القوة المصمة للآذان درجة لا يمكن أي شخص بسببها أن يسمع صوت السكين تخترق لحمنا . يا لهم من جبناء أنذال . هم الذين لم يكونوا يجرأون على نكث عهدهم الذي قطعوه على أنفسهم والقاضي بأن لا يدخلوا قط حانوت سحار متحالف مع الشياطين المردة ومع قوى السلطة والنفوذ . فكانوا اذن ينتظرون في الخارج . على أننا كنا نعرف كيف نتملص من مطاردتهم فنضللهم

في تعرجات الأزقة والمتاهات الملتوية حتى نصل الى جوار المدينة الأوروبية المتلألئة نورا وقد غزاها رجال الشرطة بوجوههم الحمراء المتوهجة فيعيثون فيها فسادا . ولما كانوا يكرهون رائحة الخمر في أفواه الزنادقة فقد كانوا يفضلون العدول عن مطاردتنا والرجوع الى الحفل والازدحام لمد أيديهم متصدقين. وكانت السهرات تطول الى ساعة متأخرة من الليل فنغتنمها فرصة رغم مساومات الكهول الذين كانوا يثقلون كواهلنا بالصيام . فقد كان في امساكنا عن الطعام الذي كنا نغالي فيه ونوصله الى أقصى حدود الطاقة البشرية مبعثا لهلعهم . وكنا نتعمد الانتقام من وقاحة الصائمين بأن نعرض على الجميع مظاهر مرهقة ووجوها شاحبة . وكانوا يتوسلون الينا بالانقطاع عن الصوم . ولكننا كنا نصيح صارخين : يا للفضاحة . يا للعار . يا للكفر والالحاد . هل تريدون حملنا على عدم القيام بما أوجب الله ؟ كلا وألف كلا . فكنا بذلك نبقى متحكمين في المساومة والمزايدة مع الاقبال — خفية منهم — حتى التخمة الى لذائذ المأكولات وبقايا المآدب التي كنا نختلسها في آخر لحظة من حانوت احد بائع المرطبات ، من أقاربنا وكان من أثرياء المدينة ، الذي كان المتسولون يجتمعون عليه في

الصباح الباكر . فــكانوا اذ يجــدونه فارغا ممــا يشتهون ، كانوا يتنغصون ، ظــانين أن في الأمر لخدعة أو أن العائلات الثرية قد أفلست مما يجعلها في نظرهم فاقدة لكل عصمة . وكان سلوكنا يتأثر بهذا التصرف المنافق ... انهــا دائــرة المصائب والذكريات الرهيبة : الطفولة ... موت الأخ الأكبر ... دائرة المصائب ! السهرات الرمضانية ...

الليلــة الــرابعــة

لما سألت أخي الأصغر عما اذا جاءه الطمث الأول مثلما داهمني الطوفان ، صفعني ثم صمت . ولحد الآن لا أزال أشعر بآثار الصفعة هذه على خدي اليمنى . صفعة عبقة . دبقة . قذرة . لذقة . لم أخرج من دائرة المصائب ولما أخرج . اليوم يوم عادي . استقالت الكاتبة . لقد حاول أحد المرضى اغتصابها وهي في دورة المياه . تعل الرجل يأسا فلم يعد له ما يخسره . وبرر موقفه بأنني قررت اجراء عملية جراحية لاختثاث موثه . ظنا منه أنه سوف يفقد من جراء العملية فحولته . فعمد الى استغلال الفرصة الأخيرة . أزمعت الشرطة على توقيفه . فشرحت لها أن مثل هذه التصرفات عادية جدا في كل بلدان العالم . وأن الرجل كان قد فقد وعيه . فاقتنع الشرطي وانصرف . أما أنـا فبقيت بدون كاتبة . فاضطررت الى دق التقـارير أنا بنفسي . وخاصة الى دق بحث مطول ضخم حول آفة كثيرا ما نجدها منتشرة في بلادنا : أمراض الرحم عند

المرأة وسرطان الموثة عند الرجـل . كانت الوزارة قد ألحت علي للقيام بهذا العمل . ووزارة الصحـة على دراية بأسباب هذه الآفة : التناسل وما يتفرع منه : التضخم السكني وما يعتري الجهاز التناسلي من أمـراض شـتى . أدركـت أن الحـكـومة ضـاقت ذرعـا ومالا . ولـم يعـد بامـكانهـا مجـابهـة مثـل هذه الكوارث . ولذا أسنـدت الي مهمة وضع تقرير مفصل حول هـذه الكارثة الوطنية . وها أن الكاتبة قد استقالت . أنا لا أتقن الدق على الآلة الراقنة . ما العمل ؟ سوف نرى . خاصة وانني أشك بما سوف يلاقي هذا العمل القيم من تنائج . ويقيني أن مآله انما هو سلة المهملات أو الدروج المنسية . فان الحكومة في هذا المجال تخشى تموجات ردود الفعل . قال لي البواب وهو لا يخفي ميله الشيوعي : الأيمة يا دكتورة . والأهالي أيضا ما زالوا حريصين على الحرمة . كنت أكن لهذا البواب كل احترام . كان انسانا طيبا . كان أميـا وسنحت له عقيدته الراسخة فيه أن يتوغل في صميم القضايا السياسية والاجتماعية . يا له من انسـان طيب ! كثيرا ما كان يدعوني الى بيته . استضفته يوما لتناول الطعام في المنزل وصارحـت أمي عن عقيدة هذا الرجل . كاد أن يغشى عليها . ولكنها

لم تستطع معاكستي • اذن أنا اليوم مضطرة الى أن أدق التقرير بنفسي • قال لي البواب الشيوعي : الراجل عندنا ما زالت عقليته متخلفة • يظـن بلي ما ابقاتلو حرية الا عندما ينام مع زوجتو • ليه بعض الدقائق في اليوم يقـدر يتسيطر فيهـا ويتفحـل ويستعبد • راكي فاهمة يا دكتورة ما أريد قـوله • مسكين المواطن عندنا • سلاح هو ••• ذكره • كل النهار مقهور • وفي الليل يفشي غيظه ••• كنت أحب الاستماع اليه • الى تحاليله • كان يضرب في الصميم • والغريب أنه لما جاءني الدار استقبلته أمي بحفاوة متصنعة ومتكلفة ولم تخب ظني • ولما انصرف قالت لي : والله يشبه نباباك • فولة وانقسمت الى ثنين • عمري ما شفت شيوعي • هذه المرة الأولى •• كيفو كيف الناس • حسبت غول • وما انخبيش عليك خفت لا يسرق لي انسكاكين • عسيت عليه • لكن ما اسرق والو • تقول باباك • عينيه صافيين وازرق كما عيني باباك الله يرحمو • اذن : يـوم عادي • رغم استقالة الكاتبة كان اليوم عاديا • أتفهمها • فهمت فزعها • اني مضطرة الى دق التقرير أنا بنفسي • ولا بد من تسليمـه الى السلطـات المختصة • لقد عبرت فيه عن تشككي ازاء نجاح مثل هذه المبادرة التي لن تترك عند انتهائها أية آثار

ملموسة . والسلطات الصحية متحذرة حول كل ما له علاقة بالجنس والتناسل . وفي نهاية المطاف سيقع العبء على أكتافي : تفاقم الحالة الصحية على صعيد الجهاز التناسلي عند مواطنينا . وبعد العمليات والبتر تبقى المشكلة هي هي لا تتغير . المرأة تطلق . والرجل يتهلوس . وذلك على الرغم من حرصي على اقناعهم بأن مثل هذه العمليات لن تنقص من فحولة الرجل ولا من خصوبة المرأة . لكن حدث الناس بقدر ما يفهمون . وهم لم يفهموا من هذه الأمور شيئا . وما أن يخرج الرجل من العيادة حتى يسقط في الهلواس فينهي حياته في المستشفيات العقلية أو ــ نادرا ما يكون ــ في المقابر بعد الانتحار . يا له من مشكلة عويصة . ان هذا التقرير الذي أنا في صدد طبعه لن يغير شيئا بشيء . سوف يزداد عدد السكان ويزداد التضخم مهما حاولت السلطات للحيلولة دون ذلك . زد على أن مبادرتها هذه ــ على هذا الصعيد ــ تتسم بالاحتشام وعدم المصارحة وبنوع من الاستنفاق . قال لي البواب الشيوعي : هذا كل سياسة يا دكتورة ... والسياسة مش حاجة ساهلة . كيما قال الحاج العنقة ، رحمه الله ، موش آجي وازدم . توعية الجماهير مش بالشعارات التي تطلق في بعض المناسبات ثم تختفي عن الوجود

بسرعة ... المسألة يلزمها نفس طويل ورؤيا واضحة . حاولت ايجاد بعض الشعارات : أمراض الغدة التناسلية كارثة وطنية . سنة الألفين عشر مليارات من البشر على سطح المعمورة . هل هذا افراط في الواقعية ؟ لا زالت الخبرة السياسية تنقصني . لكن البواب هو لي المساعد الأكبر . لقد استقللت في المساء حافلة مكتظة بالخلق . حاول شخص قرص اليتي . فتجاهلته . قلت في نفسي ها نحن في صلب الموضوع . الهوس الجنسي . انه الهوس الجنسي . وأعرف أنه ناجم عن الحرمان . لكن ! فاذا الحافلة تتعطل في وسط الطريق . يا للنهار المشؤوم . بعد استقالة الكاتبة ومحاولة الاغتصاب وتصرفات الركاب المخذية ها هو دور المحركات . حتى المحركات ملت من نقل الركاب . من نقل العباد . ثم ان المطر راح يتهاطل غزيرا . مشيت طويلا تحت المطر . كانت وتيرتي عدائية . راودني بعض الرجال بعسلياتهم . السخيفة . لم يبدر مني أي رد فعل . لو هم عرفوا ما هي مهنتي لفروا من وجهي هاربين . فزعين . المشرط . تسرعت في مشيتي دون التفات فيها . سوى الى الأمام . تذكرت تلك المرأة التي أنجبت عشرين طفلا . خفت من أن تفيض عيني دموعا . فكرت في اليوم الذي

انقضى . يوم روتيني حقا . بعض العمليـات . استقبال المرضى . محـاولة اغتصـاب الـكاتبة . استقالتها على الفور . والبواب في آخر النهار يأتيني بفنجان قهوة . كأنه يعطف علي هذا الرجل . كان رقيق العواطف . متهوس للسياسة . يهجي الجريدة تهجية . له حس بالغ بالكرامة والضيافة . يعرف عن حدس متى يجب التدخل في مشاكلي لاستغاثتي . ومتى لا يجب . قلت له يوما : يا لك من داهية عم سعيد . هل تتآمر علي فأنخرط في حزبك ؟ قسم باليمين أن لا : أبدا والله ، أبدا ثم أردف مداعبا : الحزب ليس طاحونة يدخلها من احترش دقيقه ... لا يدخله الا المطهرون من أوساخ الدنيا ... أما عن الكاتبة فلعلها حسنا فعلت لما استقالت . كانت أما لست أطفال وكانت حبلى من جديد . أنا لا أحب النساء المكثرات من النسل . ثم أن وثيقتي حـول الأمراض الجنسية مليئة بالملحوظات السرية جدا . أنا متأكدة أنها ثرثارة . تريد أمي أن أتزوج . ولكن لم أتزوج ؟ عشيقي الأول طعمني ضد الزواج نهائيا . لقحني هذا العشيق . فكرت في مكالمته هاتفيا . لعله مغتاظ . الرجل حقود . أصبح يشـكو من عقدة الحلزون . من حسن حظـه أنني لم أحـدثه عن الخنازير وقدرتهم على تخزين نصف ليتر من المني في

خصيهم . يا لتفاهة الرجال . أطفال . اختصاصيون في النزوات والتقلبات . فعلى السلطات المعنية أن تصعق المواطنين بشعارات كارثية فتتخلص من هذه العقد الجنسية التي ستؤول بنا الى حيث لا تحمد عقباه . البواب الشيوعي لم يوافقني . قال هذا تطرف يا آنسة . مهلا . فترة لازم نمر بها . تعيشي وتشوفي . في ايطاليا في الخمسينات كان التضخم السكني يصل الى معدل 4 ٪ . كان رقما قياسيا آنذاك . ومنذ السبعينات انخفضت هذه النسبة الى 1 ٪ . وهو الرقم القياسي الآن في العالم بأسره في تقلص الانجاب . هل رأيت ؟ فترة ونمر بها حتما . هكذا التاريخ والنمو الاقتصادي والتصرفات الاجتماعية . ايطاليا الآن تشكو من نقص في الولادات ... قلت وفي بلادنا متى نتخلص من هذه المشكلة ؟ كلما هبطنا في درجات التراتب الحيواني كلما زادت أهمية التناسل . هل تعلم ذلك عم سعيد ؟ اذن كان هذا النهار عاديا . أمي تحدثني عن الزواج بدون الحاح . مجرد تلميح فقط . لا أعاكسها . أبتسم . أصمت . هل أقص عليها قصة غرامي الأول ؟ أو قصة هذا الشاب الذي كان يتعسل بكلمات الحب والغرام والزواج وانجاب الأطفال وتكوين أسرة سعيدة ؟ هل أبوح لها بما قاله لي ؟

بعد ممارستي واياه الحب تلقائيا بثقة وبراءة ؟ هل أطلعها على التفاصيل ؟ هل أقول لها ما تفوه به بعد أن نال مراده ؟ (الثغـرة . الثغرة .) النساء الشريفات ... لا ... لا فائدة من الاستطراد . أخي الأصغر هو أيضا قلق . عزوبتي تزعجه . انه حريص على سمعته . لقد رقي مؤخرا الى رتبة قائد طاقم في شركة الخطوط الجوية الوطنية . لو لم يصفعني وأنا لم أتجاوز الثانيةعشرةبعد لعل الأمور كانت قد أخذت مجرى آخر . فالعقدة النفسية أتحمل ثقلها وأعتبر نفسي مسؤولة عنها أنا الأولى . وما أن دخلت غرفتي حتى سارعت أمي فجلست على كرسي الى جانبي منشرحة المسام . وفي عينيها دعابة. فهمت أن في الأمر حكاية . قالت لقد تمخضت فأرتك وأنجبت ثلاثة . ضممتها الى صدري وقفزت الى القفص . وبالفعل فقد كانت الفأرة البيضاء رابضة في كومة من القطن . قلت والصغار ؟ قالت وضعتهم جانبا . ما أحلاهم . ومرت على سحنتها سحابة حزن. فهمت الايماءة . والسؤال واضح : وأنت متى تنجبين لي أحفادا ؟ تجاهلت نظرتها الطيبة . فتحت القفص . لاطفت الفأرة ولامستها . وأين الصغار ؟ قالت وضعتهم في الدرج وفرشته بقطعة من القطيفة . وبسرعة فتحت درج مكتبي فانبهرت لرؤية أولئك

الرضع • أخذتهم برفق ونقلتهم الى القفص حيث كانت أمهم رابضة • فاذا بهم يبادرون الى الرضاعة فيمصون أثديتها بنهم • وكانت أمي من ورائي محملقة • قالت نسيت أنها ترضع • قلت وكيف لا ؟ ربيت هذه الفأرة من زمان وركبت داخل القفص متاهة معقدة على صورتي ومن صنع يدي • زودت القفص بما أمكن من المتاهات والحواجز والمصاعب وقضيت الساعات الطوال مشغولة أنظر الى الحيوان وهو يكتشف فضاء سجنه بمهارة ليس من بعدها مهارة : ينظمه • يهيكله • ويطغى على فضائه بحس عجيب ، يعجز عنه الانسان نفسه • كانت المتاهات متشابكة معقدة ومجزأه • غير أن الفأرة البيضاء (سميتها يسمينة) كانت تركض عبر نسيج من الدوائر والانعطافات والعقد والحواجز : فأدركت أن من خاصية الفئران : مسح الأراضي • انهم يعرفون قياسة الأرض خيرا من الانسان • الفأر يلاحظ • ينظم فضاءه الحياتي • يتذكره كلما وقع عليه اختلاج أو تغيير • واذا ما أطلقته سنة كاملة حرا وعدت به الى قفص المتاهة فلن يتردد ولو ثانية واحدة ولا يرتكب أي خطأ • فيشق بلا مشقة مساره الأول ذاهبا لتوه الى هدفه دونما ذبذبة أو أخطاء • لقد أضفت على صعوبة المتاهات صعوبات أخرى فاذا بالفأرة الألوف

تجد لها حلا على الفور مهما طرأ عليها من تعقيدات. فانشغفت بها انشغافا . وأكثرت من التجارب . حتى اذا ما فهم أخي الأصغر ولوعي قال لي بامتعاض : هذا الأمر ليس بريئا انما يدل على نقلة نفسانية . فلم أرد عليه بكلمة . ورحت أنظر الى الصغيرات ترضع أمها بنهم . ولاحظت كم كانت هذه سعيدة . متلاطفة . متحننة . كلها احتياط لها وحرص على عدم ايذائها رضعها . نسيت همومي والمطر اللذق ووحل الحديقة ومحاولة اغتصاب الكاتبة واستقالتها وثرثرة العم سعيد حول الشيوعية والمكالمة الهاتفية التي مر عليها الآن ثلاثة أيام ، ونسيت سخرية أخي الأصغر وموت أخي الأكبر وآلاف المشاكل الصغيرة التي حولت الحياة الى جحيم . وأيضا : تلك الصفعة التي تلقيتها وأنا صغيرة لما سألت أخي الطيار عما اذا أتاه الحيض مثلما اقتحمني طوفانا دمويا . وفجـأة رفعت رأسي نحو النافذة فلاحظت أن احدى أغصان التوتة أوشكت أن تلتصق بجدار الغـرفة الخارجية حتى كدت أن أمسها (التوتة) . أو بالأحرى أكاد أمس احدى أغصانها أو بعضها . وقد كان المصباح يضيئها . فكانت أوراقها تلمع لمعان ريشـة ترتعش بحركة طفيفة . وقد أدلهم مؤخر الحديقة وتراكمت عليه الظلمات طبقات تكاد تكون ملموسة . فيمـا

راحت حركة الوريقات الأهليلجية الشكل تتضاعف وكأنها مخضبة بلون أخضر ساطع ينبثق من الضوء الكهربائي المتسدل من حجرتي . وذلك بعد أن غادرتها أمي فتركتني أمام قفص الفأرة البيضاء ترضع بحنان ورفق رضعها . كنت ــ عادة ــ أترك النافذة مفتوحة على مصراعيها في الصيف . فأنبهر بتلك الحياة الداخلية النباتية مثلما بهرت اليوم بفأرتي يسمينة وما أنجبت من فئران صغيرة رضع . وها اني الآن أشعر بذلك التشابك الحالك الذي تكونه التوتة الضخمة من خلال زجاج النافذة . وكأن الشجرة تعتمد على حركة ذاتية مستقلة فراحت تنتشر بسرعة أكبر عند هبوب الرياح الشتوية . فكأني بالتوتة تستيقظ اذاك فجأة فتنتفض وتحمحم . ثم ــ وبدون أية فترة انتقالية تدريجية ــ تعود السكينة الى الربوع وتهدأ الأوراق والوريقات وتسترجع سباتها العميق ، وجمودها الهائل المهول . باستثناء الأغصان الأولى تلك التي تسلط أشعة الأنبوب الكهربائي أضواءها المجهرة عليها . فتبرز بدقة في مقدمة الأغصان الأخرى التي لا يلحقها الضوء . فيشحب لونها أولا . ثم تغيب عن النظر شيئا فشيئا . فلا أراها وانما أحدس وجودها حدسا . الى أن تضمحل رؤيتها نهائيا . لكنها تبقى ــ في

الحقيقة ــ متواجدة ، منطبقة الواحدة على الأخرى وسط قشرات الظلام وطبقاته المتراصة • ومن خلال هذه التراكمات ينبع حفيف ضعيف أو زقزقة عصافير خانقة خافتة • وكأني بهذه العصافير المختلفة المخفية تطلق من حين الى آخر صيحة ضعيفة من خــلال نعاسها ، مرتعشة ، مضطربة ، متأوهة ، نائحــة ، نواحة • وهكذا بين بهرجة التوتة ووداعــة الفأرة المرضعة ، أبقى كالمعتوهة • لا أعرف للسعادة حدودا • فأنسى اذاك كل المشاكل والمتاعب التي داهمتني في هذا النهار • ليس في الشغل فحســب بل وفي الشارع أيضا وفي الحافلة حيث مد لي رجل مسن لسانه مدا شبقيا مخذيا • لسان منجل • مبرغل • محبحب • صائم • مبقع • وقد حركه بشكل فاجر • أشحت بنظري عنه وفي سريرتي اعتقاد ليس فيه أي شك بأن امارات الجنون تتضح أكثر فأكثر ، على سحنة الرجال في هذه الأيام الربعية (الخريفية؟) •ولا ينفك المطر يتهاطل • واذ وصلت الى المنزل اذا بزوج الكاتبة ينتظرني أمام بوابة الحديقة يعلمني أن امرأته قد أجهضت بعد محاولة الاغتصاب التي تعرضت لها فكادت أن تذهب لها ضحية • فأدركــت أنه جاء يطالب بتعويضات اذ أن زوجته فقدت حملها وأصيبت بالبرقان • حاولت أن أفسر له أنه ليس لي أية علاقة

بالموضوع بل عليه أن يقدم طلبا في هذا الشأن الى رئيس الادارة ، أو يرفع شكوى الى المحكمة . الا أنه حاول أن يقوم بدور المغفل وأخيرا طلب مني موعدا خاصا في احدى المقاهي لأنه على ما قال ، لديه أمور حميمة يود مصارحتي بها . قال بيني وبينك . فهمت أغراضه وأقصاده . اندفعت فجأة نحو المنزل ، تاركة اياه يبقبق في مياه جنونه والمياه المطرية المتساقطة . قلت في نفسي : الدعارة بعينها . امرأته تجهض من جراء محاولة اغتصاب وهو يجيء الى منزلي تغزلا . يا للدعارة ! وهكذا أدخل الى حجرتي وتأتي أمي بفنجان قهوة حسب عادتها وتبشرني بتمخض يسمينة بثلاث صغار . قلت في نفسي ها هي الكاتبة تفقد جنينها ويسمينة ترزق ثلاث فئران . أما الآن فانني هادئة . العصر يمر والمطر يتواصل . ولم يسن لي أن أنظر من النافذة ولو لحظة واحدة . انني هادئة والمطر هادىء ودقيق . يطلي الميناء . أما أنا فجافة . غير متأكسدة . لا أحد يستشفني . كلي ألغاز . عيناي كعيني أمي : رماديتان . كانت تقول : لابسة أو عارية لا يهم . فالمهم هو الباطن . هذا مثل آخر ورائع . كانت تحفظ الأمثال مثلما تحافظ على نعناعها لتحضير الشاي الذي كانت تشرب منه لترات عديدة يوميا . وفعلا .

المهم هو الباطن • انني مجهزة • وجهــا وقفى • لا أتبدل • أما الرجل في بلادنا ، فرخو في الداخل وصلب في الخارج • أنا أفضل الفئرات بدون شك • ولو لم تكن مخصبة النسل الى حــد بعيد فاني لفضلتها على البشر • صحيح انني مسؤولة عن عيادة ضخمة • غير أن الممارسة الطويلة علمتني أن أحبها • انه نوع من الحنان الغــامض • النــاس لا يدرون ما يريدون • الفئران تنقذ البشر من المــوت ابان المجاعات • كان المقريزي (743 ــ 820) قاطعا في حديثه عن المجاعة التي أصابت القاهرة عام 787 هـ : الجزارون كانوا يبيعون لحم الجرذ على غرار لحم الخروف • وفي عام 1870 بلغ ثمن الجرذون الواحد في باريس أربعة فرنكات • انني أنا أطالع • فمن منا يعرف المقريزي ؟ كان تلميذا لابن خلدون ونابغة القرن الخامس عشر • انه لــرائد عــربي من رواد الاقتصاد العصري • لدي من الوقت ما يســمح لي بالتنقيب • لا أنام • عندما يكون على المــرء أن يتحمل مسؤولية عيادة كعيادتي لا شيء ما عدا الأرق يهم • لا تشتت • لا انحراف • انني أبغض ذلك • مفتاح النجاح انما هو : أهداف واضحة ومواعيد دقيقة • لقد خصصت منذ سنوات عدة بطاقات عن المجاعات التي حلت في مصر في القرن الثامن للهجرة

على عهد الايوبيين . أستطعت ذلك بفضل كتـــاب المقريزي . اغاثة الأمة بكشف الغمة . ولكم أحببت تحليلاته الاقتصادية . واني لأتساءل اليوم فيما اذا هو لم يكن شيوعيا كالعم سعيد ، بواب العيادة . هأنذا هادئة . المهم الباطن دون سواه . كانت محقة أمي في قولها . انها دائما محقة . كانت تقول سواء أكنت لابسا أو عاريا لا يهم . المهم الباطن . كانت مصيبة في قولها . أمثالها معين لا ينضب . أستقي من تراثه الكنوز . وقد دونتها كلها على بطاقات . تناهز المائة . لا بد من الاحتذار . لا بد من احضار خطة دقيقة . لكن يسمينة . لكن التوتة . لكن أمي . لكن طبخ أمي ... من أين أبدأ ؟ من نقطة خارجية أم داخلية ؟ نظام . فوضى . اذا كان أفراد العائلة محقين في كلامهم فأن تقولات المربية (العمة فاطمة) حقيقية . وماذا لو كان رأسي يحتبس فأرة كبيرة ؟ انتظار . ثبات . لدي تقرير لا بد من طباعته . لكن هناك ميوعة برتقالية تشطرني الى شطـــرين . شطـــر مرتخ وشطر صلب . هل بدأت أشبهها (الفئرات) ؟ داخل رأسي . تحت خميرة الكلمات المتـــكسرة . المفسخة . المشطبـــة . ذات الفواصـــل المنحلة . المشتبهة المعاني . تتخمر ألوان بنفسجية . انطباعات مضمرة . حصر حلزوني . وأقع في الشرك . أأفقد

المحور • أفقد المركز • الباطن يرتخي • الصديد يطغى والحيرة تتكثف • الرأس كبة صوف موجعة والرئتان ورق أصفر • قناطر من الماء تتساقط • ولم توجد الاضاءة نلحد من هذا الاحساس بتعددية منابع النور ومراكزه المنقسمة الى آلاف الأجزاء المنصهرة في الهواء المتعفن بالرطوبة الدائرة فيها • أقراص مصغرة تتصادم بعضها ببعض وتتطاير في الدماغ عبر مواشير وانعراجات • انها تجرجر معها كلمات محفورة بالأزميل الى منطقة تلك السطور • أريد الاحتفاظ بها • أرغب في أن أكون حقيقية ولو مرة واحدة • والهدأة المستتبعة مكنتني من استجماع ذهني • بودي لو يتوقف هذا المطر • فأستطيع التركيز من جديد • فأنتهي من المسائل العادية • فأستقبل شخصا أو شخصين قبل سقوط الليل • منذ برهة وجيزة خابرني رئيسي عن طريق الهاتف • انه قلق من صمتي عن التقرير • لم أشأ اضجاره بالحديث عن شكوكي وعن صحتي • أجبته • ساخرة • بأن موظفا متفانيا ومثاليا لا يمكنه الا أن يكون بخير • بدا وكأنه ارتاح لهذا الكلام • تكلم عن رداءة الطقس وأردف : أن الحلازن تمرح وتفرح • كدت أن أصارحه بأنني لا أستذوق مزحته • فأخبرته عن استقالة الكاتبة وعما حدث في العيادة في هذا النهار • سكت برهة

فأغلق الخط . تذكرت قولة أخي بالنسبة لغبطتي بمناسبة انجاب يسمينة ثلاثا . ماذا قال أخي العزيز ؟ قال : حذار ، هذه نقلة نفسانية ! يا للأبله ... وأنا أدرى منه بمثل هذه الأمور ...

الليـلة الخامسة

ظل الليل يزداد عمقا ومتعة وبدا الشفق بعيـــدا وقريبا معا وفي آن واحد • وعلى الجدار المقابـــل اتكأت الشمس مطولا • وما لبثت أن اندثرت اربا اربا داخل التوتة • وانتهى التكوين الكوني كله وقد كنت أعتبره مأوى للفراخ • وينقصف الماضي مثلما الغصن الذي ينخره الدود فراح ينفلج • أخـذت أغصان التوتة تخدش زجاج أحد مصرعي النافذة • فاذا الفأرة يسمينـــة تفزع فتتـــوقف عن ارضـــاع صغارها • ظل الليل يزداد عمقا • يأتي طائر مرفرفا زهوانا ، باسطا جناحيه وكأنه يخشى سقوط السماء عليه (أي الحبيبات الليلية التي تتكون منها المادة الجوية بعد غروب الشمس •) وكأن عنقه استمسك بالأفق • وريشه يشكل زخرفة عربية تشوه خضـــرة المحيط • خفت الزقزقة وكأنها تبعثرت في متاهـــة لا حدود لها • واذ زاد الليل متعة وبدا الشفق قريبا وبعيدا في آن واحد ، بدت الفأرة يسمينة مزهوة • واذا بالقمر يتصاعد • فضيا • لماعا • مفلطحا •وكادت

التوتة تلتصق بجدار الدار بحيث أنني كنت أكـــاد أمسها في فصل الصيف اذا ما هاج هيجانها • هذا خاصة اذا ما رحت أطيل الـكتابة على صفحـــات ليلياتي • كنت أكاد أمسها • وألمس العصافير التي كانت تلجأ اليها في قعرها عند الأصيل ، فتختبيء في ثناياها • وكأني بوشوشـــة العصـــافير المختفية المتخائفة وحفيفها والتأوهات والزقــزقات الفـــاترة والتنهدات والخفقانات والاختلاجات الخافتة قبـــل هبوطها في بئر النوم أو النعاس العميق (التناعس بالأحرى) وقبل تعششها في عتمة التوتة الضخمة ، العتيقة ، المشرئبة أغصـــانها والتي تـــكاد تلتصـــق بنافذتي ، كأني بها ــ اذن ــ مجرد خفقان أجنحة تلك العصافـــير الحرداء ، المتنائمـــة بين الأغصــــان والأوراق • أو مجرد مهمهمات نابعة من حناجرهـــا المتكاسلة ، لا بل هي ــ على الأرجح ــ تمثل أنات أنين وعويل وظلامة الكون والبشرية المتناهكـــة ، التعيسة ، المفعمة بالمصائب (حلقة المصائب ودائرة المصائب !) وأوجاعها ومآسيها وكآبتها وعزلتها • واذا السويداء تتوغل في أعماقي • في أحشائي • لم تعد الفأرة الدعوب تطمئنني • ولم أعد الأرغب في مشاهدة هذا المنظر اللطيف • لقد انقض الحزن علي انقضاضا • أتشرج بين طيات النوم • متقوقعة

في داخله . لا جدوى من تحرير ليلياتي . نوع من الغثيان نفث في جسمي اهتزازات غريبة . لا مفر من النوم . وخجلت من جبني . أنا التي جعلت من الأرق مبدأ حياتيا . ها أنني أنهار فجأة . وفي خضم النعاس أغطس . ويظهر لي من خلال غيبوبة خفيفة أن النوافذ تحولت الى لون باذنجاني . المرضى الذين عالجتهم طوال النهار يغتصبون نعاسي. تأتيني أصواتهم وحشرجاتهم وكأنها ملتوية ، منقلبة . لاحظت من خلال النوم وكأن هذه الأصوات وهذه الشكاوي والتأوهات تصل فراشي . كأنما المطر بللها . هو الذي لا ينفك يحفر أثلاما طويلة على الزجاج . بحيث تخلق كثافته احساسا خاطئا بالمرونة . واذا بي أقفز من الفراش بين يقظة وغيبوبة . أفتح القفص . آخذ يسمينة في أحضاني . أعود الى الفراش وأنا ألامس فروها . تتقوقع هي وتبحث لها عن مأوى بين ثديي . أشعر باحساس لذيذ ، يكاد يكون ــ لمرونته ــ شبقيا . فرو الفأرة البيضاء ألين من بشرة أي رجل من الرجال. أنفاسي ملتصقة بالمرآة التي تعلو فراشي . شعرت وأنا نصف نائمة ، متناائمة ، ويسمينة رابضة بين ثديي ، أن شبكات واسعة ، متداخلة ، متضاربة ، تخيط خيوطها مثل مخاط الرتيلة أو العنكبوت .

شعرت بأن عنكبوتا ضخما أخذ ينسج شبكته الرهيفة بين طيات خلايا العصبية • وعلى النافذة متاهة أخرى تنمو تحت البلور وتغطيه • زاحفة زحفا مريبا • واذا بالولع يأخذ مني مأخذه • ويسيطر الخوف علي • أردت أن أضيء المصباح • فينتابني ، في ظلال الظلام المتسادل ، احساس غريب بفقدان حواشي وحدودي • لقد حل الليل الآن نهائيا • أوشكت الاستغاثة بأمي • عدلت • ضممت يسمينة الى صدري بعنف • مما أحدث عندها نوعا من السقسقة • فلم أشعل المصباح • بل امتلأت شجاعة • سواد الليل سواد نيلي • لم أعد أتبين شيئا في الفضاء • أصبح الليل قاتما • نجيا • أسود • عميقا • شعرت وكأنه يلامس بشرتي على مستوى الخدود • تطفلي — في الصباح — على ضجيج وفرقعة الأصوات والأشياء المغمومة ، الغامضة ، القاحلة ، المبهمة ، الممزوجة بشكل متزايد ، يجعلني أرهف شعورا واحساسا • دوراني حلزوني الشكل • في الفراغ أغوص • في الحلقة المفرغة • مصير امرأة ! لوحات الزجاج الواقي — نصفه برتقالي ونصفه أشهب — قد احتوت على اتجاهات وتشاطيب وجذاذات راحت تدور في رأسي بطريقة ثاقبة • فتذكرني ، وهي مرقونة ، مغروزة ، مطبوعة

بالأضواء العجاجية وبسيارات الاسعاف . تلك التي أراها كل يوم تنطلق من العيادة أو تعود اليها ، غاصة بالمرضى وقد أصيبوا بالأمراض الجنسية : السغلف ، الالتهاب البولي ، تضخم الموثة ، سرطان العدة التناسلية ، تلاشي خلايا الرحم الخ ... أو ــ عندما أتجول في المدينة ــ المصابيح الغامزة ، المتأججة ، تلك التي تنبع من سيارات الشرطة في عبورها الى واجهة البحر ، حيث الميناء الذي هو في تورم لا حصر له ولا قياس . لكثرة ما على أرصفته من بواخر متراصة . تخصصي بكل أنواع التورمات والسرطانات وانفجار كل أنواع الغدد ، جعلني أقارن كل شيء مع هذه الأمراض التي ضاقت لها أنفاسي ، فلم أعد أتحملها . ولكن ما العمل ؟ لا يمكنني التخلي عن مهنتي . ولا اهمال المرضى الذين يعانون الأمرين ورهبة الآلام . والنتيجة : ان كل هذه الرموز المخفية لم يعد لها في نظري أي معنى . طغيان العادة . ولكم أود أن يتحجر قلبي مثلما هي الحال لكثير من زملائي . ولكن . لكن . لكن .. انه لأمر مستحيل . أستمع : سيولة الحركة الغامزة برتقاليا وازرقا مثله مثل حلم انقسم الى قسمين فتستخرج منه الألوان والانطباعات الغامضة المتخمرة داخل النعاس وتحت خميرة الكلمات

المكسورة ، الممحوة ، المشبطة ، المبعثرة وقد يبقى معناها مجزءا بالنسبة الى حلمي المنغلق على خزية كزنبور تاه في هيكل الحويصلات التي يستخرج منها عسله المأخوذ بين الانتجاع والتفكير . متذكرة هكذا أصياف الجفاف ومذاقها كمذاق القرفة التي كانت — في عهد الطفولة — تباع في القبو البارد والمحاط ان صح المعنى بالفتائل والحبال (آلة التجفيف) مع الهواء الجاف المعطر برائحة المشمش الطيبة وهو يجف فوق وعلى السطوح . وقد أفرغ من نواته . وقد قطع نصفين . وقد نشر مسطحا . مباشرة على القرميد ذي الألفي قدم . فيضيف التهابا آخرا الى الالتهاب القادح لمنتصف النهار وهو يزحف عند سفح الجبل قبل أن يغزو بشيء من الحركة الخليعة القرية (حيث كانت العائلة تقضي العطلة الصيفية) فيغرقها (القرية) المظللة دوما الغامضة دائما . ربما بسبب هذا النثر اللامرئي المحكوك بالدكانة والصدأ والمحاط بالحشرات النصف نائمة ، النصف يقظة . وان كانت مع ذلك تطارد الطفيليات والمنبوذات اذ لا أحد يتحرك باستثناء الحيوانات الصغيرة وعصابة « العسكر » الأربعة ، أصدقاء أخي الأكبر ، الذين لا يستيقظون فجرا فيذهبوا الى جني المشمش أو حصد القمح بل

يناموں حتى لا يروا شيئا • أما أخي الأكبر فقد كان يقول ــ سابقا ــ ان هذه الرموز مخفية الى درجة أنها لا تعني شيئا في نظره • وان كان هو في نفس الوقت ينتبه جيدا الى أنها أشكال لا تخفي أهميتها عليه ، حتى ولو كان ذلك ناتجا عن مجرد انتشارها هنا في حركيتها المتكررة • فتتصغر • وتنحرف • وتتضخم • وتتضاعف • حسب ايقاع متهوس يمزرق الرأس بما يشبه العديد من الومضات البارقة زرقاء ــ بيضاء • بل حتى أنها كانت تختفي بين الفينــة والفينة ؛ في طوفان من النقاط الصغيرة أو الأقراص الصغيرة الحمراء والخضراء • تخترق الرأس مستطيلة فتشكل شبكة من الخيوط من جميــع الألــوان • فترتعد على مستوى العينين وتلتوي الى ما لا نهاية • وقد عقدت أنا ــ الآن ــ العزم على متابعة السير • على الاستمرار في التحرك كي أبرهن لنفسي عن أنني لست جبانة فيما شرع النعاس يخلط أفكاري مازجا اياها في كبة مؤلمة ، لا طاقة لي لفكها ، وهي خليط من الحدس والتخوف ، وردود الفعــل التي تزيد في الرغبة في تقيؤ عرقي وتعبي • الاضاءة لم تكن لتخفف من هذا الشعور المرعد ، المبرق ، المجنن الذي يرسم أمواجا ومنحنيات في الهواء ، كاشطــا عيني رغم ما فيهما من ألوان باهتــة غامضــة الى

ما هنالك من آلاف الجزئيات الكروية ، المستديرة • التي تنطلق معججة في الهواء وعبره • التي تطبع الوجوه بطابع شاحب ، باهت (نيون) أو منطفىء (مصابيح التنغستين) • وكل هذا التراكم للأمواج الممغنطة المكهربة التي تنكسر ، تتملص ، تتذاوب ، تتداخل ، تتجزء عبر اتجاهات متعددة ، حاملة أضواء سوداء تكاد تناطح جسيماتها في رأسي ، تقهرني ، وأنا على تلك الدرجة من الحساسية ، حذرة ، واعية لطقطقة وتململ الأشكال المشخصة بتوزيع الاضاءة التي تمر عبر موشورات وانحرافات خالقة لطخات ودويرات وكوات مفرطة الاستشعاع • فتغرق الأشياء نفسها بكل ذلك في ألف نغم ونغم ، وتحول الجو الى نوع من السيولة ، الى شيء من الذوبان • وذلك رغم ما في الضوء في مثل هذه المنطقة من شظايا مفاجئة ، أو غامضة • واذا بي ملتصقة بكل هذا الطوفان من الأضواء • فأحس احساسا ضعيفا بضرب من الانتحاء الذي يبقيني متيقظة اذ أنني أأبى أن أترك نفسي تمتصها الرموز المتقطعة ، الوامضة ، المتربصة بي لتغزوني فتبهرني وتجنني • لذلك فاني وأنا واعية للخطر أنهض بسرعة حاملة يسمينة النمأة البيضاء بيدي اليسرى وذراعي ممتد الى الأمام • شعرت من جديد

بنوع من الهوس • دحقت • استقرت عليه • حاصرني زمن التجربة انثقيل • فهمت أن الهوس منطقه • سرت العدوى في • لم أرت : عريضة الوركين ، مدورة العينين • مخوصرة الخصـرين • حاصرتني العدوى من جهتيهـا • لم أرت • كـان جسدي مسجودا • لأزت بعيدا تلك النحنحة الغـريبة • ورحت أرتوي من ظلمة الليل قدر ما أستطيع بلهفة وذعر • كان صوتي الهادىء يملأ الانحناءات الهندسية التي سطرنها العتمة • يصل صوتي الي مجسـما هائـلا يحمل الأحرف واضحة وكأنها هيكل يتجلى أبيض ، أصفر ، مريحا ، مخففا من اللوعة • فتحت قوسين ملأتهما سكـوتا (•••) ولم أضع فيهما أي نبـرة أو عبرة • لم أحاول القيام بتعليلات ذهنية • نهضت فجأة من الفـراش أبحث عن علبة السـجاير وعن الولاعة ••• انني بحاجة الى دخان التبغ • تابعت التواء مؤخرتي العارية ، على المرآة • ضحكت من نفسي • وجدتني في موقف هزلي • كدت أن أنبثق من جديد في ميوعة العتمة • لولبة دخان سيجارتي تتصاعد نحو العلاء • سارت الغرابة في • توغـل خوفي في أحشائي • ثم عدت الى مكاني وكـأن تدخين التبع أدخل السكينة في من جديد • أحسست بأني جديدة • مستقلة • متعننة • لمست فـرجي ،

فتراخيت تدريجيا . وضعت سيجارتي على المنفضة . أخذت طفرات الدخان تلتوي مستديرة ملتـوية . متلوية . ابتلت مقلتي . ركنت مرفقي الأيمـن . صمتت عن الكلام وأصابعي تتلمس طيات فرجي . أدركت آنذاك أن لا مفر من التوتة وأغصـانها . بدأت تتقلص مـع ذوبان الليل الحـالك . قبضت دون تردد ولا مواربة على عضوي . سحلته حتى الوجع . توكأت عليـه . بدأت أبحث عن حركـة مناسبة . فاجأني عنفي الذي لم يبرح جسمي مطبوعا به رغم الذعر والعدوى . شعرت بأجزائي تتمفصل منسجمة . تتحرك دون خشية أو خلل ، تفرقعت طاقتي الجنسية . مددت يدي الى نقطة الالتحام . ابتعدت نحنحة العمة فاطمة (هوسى قـديم !) . طلع الفجر . هفت أغاني التوتة . لقد كان كل شيء في مكانه . تبدل العالم . صار أخف . أهون . وبفضل حضوري الجسدي والجنسي والنفسي فقع الضباب المتكاثف . انفطحت أنوثتي . انتشرت في هواء الغرفة وفضائها . تلمست جسدي . طرفا . طرفا . فرسخا . فرسخا . دعكت نهدي . كانت الحلمة الوردية تشق الأرض . عرفت مرة أخـرى انني وحيدة . وانني متعلقة بها (عزلتي) كما لم أكن من ذي قبل عليه مع أية حاجة أخرى . كانت

الحلمة الوردية تتبرزخ . كانت ذات رائحة الملح والسكر في آن واحد . وبدون قيد بدأت أعضائي تهتز في المحيط المجاور لها . أخذت بسبابتي أدخلتها في فـ ... ثم أخرجتها ومصصتها بتباطؤ . نكلة في الرجال . أصبحت كالمجنونة لا أعرف من يسير العملية . هل أنا ؟ .. طلع النهار . تمخضت التوتة عن مئات العصافير . تصاعدت الزقزقة . كان الزمن يجري ثخينا . دؤوبا . يحمل تراكمات الماضي. ذكريات الطفولة . مقتطفات من انفجارات جنسية هنا وهناك . يفش سطح الجسد . انزلق الضوء الصباحي على بشرتي السمحاء . انزلق بطيئا متكسرا. لزجا . مترددا . مبقعا (تداخل أوراق التوتة وانعكاسها على جدران الغرفة) منقطا . مرقطا . مرقشا . صار الضوء يقترب من جسدي لماعا وجديدا ونظيفا . مسح الغرفة المستطيلة من الحائط الى الحائط . بدأت أغلي . زخم مائي . كوتني اللوعة والمتعة والرغبة . وضعت خنصري . اندثر الحليب الخاثر بين يدي . لحسته . أما أنا فكنت أستمع الى السيلان المتدفق وأنا أقص على نفسي ملحمة الماضي . كنت واجمة . ساكنة . لا حركة في . لقد كففت حتى عن التدخين . تبدد شبح العمة فاطمة وشبح العربة الكهربائية أيضا . أذكر في ما أذكر

أن لونها أخضر • قلت لا بد لي أن أجيب على الرسائل التي بقيت بلا رد • أتمسك بالحائط • أقترب وأبتعد • يهوى علي الخوف • تتخالط الأمور • كوابيس صبيانية •• كنت أحبها كثيرا (العمة فاطمة) دام احتضارها طويلا وجسمها منقسم الى قسمين تحت عربة الترامواي وهي لا تزال حية • تتخبط وتعول • طبيعي ••• مشهد رهيب ••• دماء وأمعاء ودمع وخرخشة الموت في حلقها • بلا نهاية • كوابيس الطفولة ••• ويهوى علي الخوف من جديد• تختلط الأعضاء وأروح وأجيىء وأنا أرتعد خوفاوهي (الفأرة) ترتعش بردا (النافذة مفتوحة والتوتة قد فعلت ماتريد وزجت بأغصانها وكأنها تريد وقايتها من برودة الليل الساحلية) • وترتعد وأرتعش • منخطفة • منهوشة • مرضوضة • معضوضة • أذناي تتصوعان بنحنحة العمة فاطمة ، بوقع أقدامها المتعرجة ، المتباطئة على بلاط الأرضية الزليجي ، بقرع أقدام العم جلول (هوس قديم آخر) الخشبية على بلاط الزقاق الفاصل بين مخزنة ومخزن أبي • أنطح الأحبال (الخيوط الزرقاء التي تتكون منها السماء) حيث الأفكار السلبية والمتهلوسة ممسوكة• متوازية • متتابعة • برافة • لزقة • يتزايد لمعانها وسط العتمة المالكة • ما عدا شفافية بعض الأغصان

التي زج بها الريح داخل الغرفة ٠ كانت واقعة هكذا رخوة نثة على أوراقي المبعثرة فوق المكتب حيث البطاقات البريدية القديمة البالية والصور المحمضة الجديدة البراقة الملونة ٠ أنعقص ٠ وأراها هي (الفأرة البيضاء) أيضا تنعقص بدورها ٠ أين جرأتها ؟ وفجأة تذكرت ذلك الرجل وهو يقول ـ نكلة ـ المرأة الشريفة لا تضاجع الرجال بهذه السهولة ٠٠٠ فيأخذ بيدي بعنف ٠ يطرحني على الفراش ٠ ومن جديد يمتطي وركي ٠٠٠ يسوقني ٠ يخضني كالمشكاة ٠ يعتصرني اعتصارا وتعصرا وتعصارا ٠ وكأنه يرغب في تقليص الخوف المكتوم في جسدي وفي جسده ٠ سرت العدوى ٠ سقاني ريقه ٠ امتلأ فمي من ظلمه ٠ تضرست أسناني وما يحيط بها من لثة هشة وطرية ٠ مثلما كان يوم كنا على أغصان التوتة نأكل أوراقها فتضرس لثة أفواهنا فيما العمة فاطمة تزمجر وتهدد وتغطاظ اغتياظا بدون ما جدوى ٠ فتظهر العجوز مبعجة الوجه والجسم من خلال الزاوية التي نرشق النظرة من خلالها ٠ زاوية شمس الغروب الراكدة وقد راعت ذلك الكون ثوان ودقائق وساعات وأياما وأشهرا وسنين وقرونا ٠٠٠ امتلأ فمي من ريقه وهو يمخضني ويقبلني ويندغ بشرتي ندغا ٠ أحس برطوبة غامضة ، ذات ملمس

جلدي تملأ تجاويفي وأنا أتبرحث كالملدوغة تحت دغدغة أظافره الطالعة الهابطة حسب خط العمود الفقري ... يفعل وأغمض عيني ويلوك كلاما ... كان صوته مسموعا في كل الأنحاء . عضضت شفتي . أحسست ملوحة الفم وسخونته . أردت أن أقول شيئا مفهوما . وهيهات ! فجاء الغثيان ثم الكراهية . ثم العزلة . كان صمتي ساخطا يتصاعد حول عمود مطاطي يعلو ويسير ويعود ويدور . لم أعد راغبة في مواصلة هذه الذكريات . قال كلاما وقلت كلاما رهيبا . سخرت منه . امتلأت ضحكا . انها الخساسة بعينها . خساسة الرجال التي لا حدود لها ولا منطق . لم أعد راغبة في الحديث عن نهاري المنصرم . انه ينقضي الآن ويفرغ مثل شريط جيلاتيني ومحبحب معا . محزز بوقائع وحوادث شتى . ممزق في بعض مواضعه . كالحياة التي ينقصها دائما احدى المعطيات (هل هو النسيان ؟) ملصق من جديد . مجدور بألف شارة وشارة . وسواها من صدوع رخوة . لقد دونت في ليلياتي من ملاحظات بما فيه الكفاية . انها كالحياة مملوءة برقعات فارغة (هشاشة الذاكرة ؟) سوف أعرف كيف أركبها . فأخفف منها . فأقلصها . تقليصا . فأقدمها كيفما يناسبني الأمر . أو حسب حاجيات

المصلحة التي أديرها ، لمنفعة المجتمع المستقـر في قناعاته وأمجاده الباطلين ، وفجأة يدوي صوت المؤذن مناديا لصلاة الفجر ، أتخيله جاهدا ، متـكبرا ، مبالغا ، اذن ، سوف يسعني أن أعيد قراءة ذكرياتي بكل راحة بال في المستقبل القريب ، بدون ثغرة أو نسيان ، فانني على الرغم من الصيف ، ومن الاحتلام ، ومن الانفعالات ، انني أؤدي دوري كما ينبغي ، ولعل من الواجب عليهم أن يعتز بي رؤسائي ، فاني أنا مهتمة حتى بسائقي الحافلات وبواب العيادة والمؤذن ، يقظة أنا ، وغيورة على حقوق الدولة ومبادراتهـا (سخرية ؟) ، لو كان جميع الموظفين مثلي لكانت المدينة في هذه الساعة تبرق برقا ، عوضا من تخبطها في أوحالها ، وقذاراتها ، وبالوعاتها ، لقد كتبت في تقريري أن تورمها الدسـم وفـوضى سكانها انما سيقضيان عليها ، لـكن ، اضطررت الى حـذف ما كتبت كيما أرضي رؤسائي (حذار من الرقابة !) ذاكرة مواطني قصيرة ، وحساسيتهم سريعة التغير ، ومشيتهم هائجة ، الفسخ ، أحس ، في هذه اللحظة ذاتها ، فيما يتهالك الليل ، أن الواقع أصبح اسفنجيا أكثر من أي وقت مضى ، ورغم ذلك استجمعـت ذهني ، رتبت بطاقاتي ، أتممت ملفاتي ، أعطيـت أوامـري للفـأرة ، راقبت خيـاليا أو ذهنيا سير

نافذة مكتبي حسب شباك معقدة تذكرني بالشباك التي ترسمها الجرذان الراكضة في متاهة • غلاية • الكلمات تغلي من جديد في رأسي • أتركها وشأنها • انها تنتهي دائما بالتعفن وسط محلولاتي المـائية • أنفاسي جدا صافية • اذ انني أديت مهامي اليومية خير تأدية • وذلك عبر الحواجز والكمائن والعراقيل • انني أتدبر شؤوني مثل الأمراض التي أبيدها • انني في الحقيقة أعطف على المرضى • أعطف على عصبة المرضى المصابين بأمراض الجهـاز التناسلي • لما داهمني الطمث الأول ظننت أنني لا محالة مائتة بعد لحظات • سألت أخي وأنا طفلة صغيرة فما كنت أفهم لهذه الدماء المتدفقة أي معنى لها • سألته هل حصل له ما حصل لي ! صفعني •• وكانت البداية لمسار طويل وعيشة مغايرة ونقلة نفسانية • لكنها قصـة أخرى ••• بداية العصاب • اختيار المهنـة ••• وموهبة وهبتها : تذليل الرجـال واحتقارهـم اذا ما تفحصت أجهزتهم التناسلية • المتعفنة • المتفلجة • المتصرطنة • المتقيحة • المتلاشية • واذا بهم يطرحون علي السؤال نفسه : هل من رجاء أو أمل يادكتورة ؟ فأبتسم ابتسامة الازدراء تكاد تذهب بحياتهم • فلا أجيب • أسكت • أصمت • أبكم ••• كما علموني

هم أنفسهم أن أفعل • هم أولئك الصناديد •••!
صوت المؤذن يقتحم الغرفه • التوتة تخرق العتمة •
أعيد الفأرة الى قفصها • قلت لو يصيب المـؤذن
تضخم الموثة لاتتقمت منه على كل هـذا الزيـاط
والعياط الذي يتسبب فيه كل فجر ••• الـرجال ؟
مآلهم : المشرط ! المبضع !

الليلـة الســادسة

قررت أن لا أنتحر ! نكلة في الرجال • نكلة في الرجال • نكلة ••• في ... الرجال ••• وحبا لأمي ورأفة بفأرتي البيضاء يسمينة • اذن لن أنتحر ! علي بالغاء هذا الهوس نهائيا ••• لن أنتحر نكلة في الحلازن ••• في الخنازير ••• في المؤذن • في الرجال ••• في الفحول ••• في الرجال ... نكلة في الرجال اذن ... نكلة ... نكلة ••• كذلك قررت أن أتوقف عن مواصلة تدوين ليلياتي ، في هذه اللحظة بالضبط ••• لم يعد لها معنى ولا ضرورة •• نكلة ! نكلة في أخي الأصغر • نكلة في عشيقي الأول • نكلة في العشاق الآخرين • نكلة ! نكاية !

المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
ورشة احمد زبانة
الجزائر 1985

هــذه الــرواية

امرأة وليل وحلم .

وهل كانت حيــــاة المرأة العـــربية عبر العصور الا ليلا وأحلاما أغلبها كوابيس ؟

الليل يسدل ستائره التــوتية ، وسرعان ما تحوط بالمرأة تلك الحلاوة ، حلاوة مذاق التوت بعسليته الحلبوية ، بيد ان نواة ذلك التوت تنزلق فجأة عبر الحلق وياما تحمل من مرارة ، لكأن التوت طعم بالعلقم !

الليل والمــرأة وكابوس الانتحــار ، فهل تنتحر هي ؟

كلا ! ســتكتب ليلياتها ، بل ســتـ
نهارا جديدا تكله في الرجال !